دراسة مقارنة في منهجية طه حسين في الآدب الجاهلي وبلاشير في تاريخ الأدب العربي

بحث تقدمت به

د.عذراء محمد

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـدمــــــــــــة

قامت دراسة اللغة العربية وتاريخ الأدب العربي على دراسة الشعر والنثر الجاهلي ، على الرغم من اختلاف الدارسين شرقاً وغرباً قديماً وحديثاً في وجود هذا الشعر وروايته وهذه الدراسة إعادة قراءة ومقارنة موجزة في منهجي أستاذين كبيرين تناولا الشعر والنثر الجاهلي بالبحث والنقد أولهما : طه حسين في كتابه في الأدب الجاهلي ، وثانيهما : المستشرق بلاشير[١]، وإذا ما سأل سائل لم المقارنة بين منهج طه وكتابه مؤلف في عام سبعة وعشرين وتسعمائة وألف من القرن الماضي وكتاب بلاشير بعده في خمسينات القرن المنصرم ؟ فالجواب ان الرجلين اقتبسا من آراء المستشرقين السابقين عليهم في بحث الموضوع ، فضلاً عن نقل آراء علماء العربية القدماء وتوجيهها بحسب الأهواء ، أو كيفما شاءت له سياسة الفكر الذي انتهجه في دراسة الأدب الجاهلي شعراً ونثراً من غير استثناء الاتجاهين ان لم نقل اتجاههما الموحد إلى إعادة النظر في دراسة القرآن ، وكان بلاشير بطبيعة الحال أكثر تأثراً وحتى اقتباساً من آراء طه حسين الذي آثار كتابه عند صدوره عاصفة من الردود العنيفة ، علماً انه كان مقلداً ان لم نقل سارقاً للآراء التي بثها في ثنايا كتابه ، ومع ذلك فان ".... المطابع قد أخرجت في السنة التالية لطبع الكتاب عشرات الكتب والرسائل في الرد عليه ودحض آرائه أظهرها كتاب تحت راية القرآن للمرحوم مصطفى صادق الرافعي والشهاب الراصد للأستاذ محمد لطفي جمعة ونقد الشعر الجاهلي للعلامة محمد فريد وجدي ونقض الشعر الجاهلي للأستاذ محمد الخضر حسين ، والنقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي للأستاذ محمد احمد الغمراوي مع مقدمة طويلة للمرحوم الأمير شكيب ارسلان . وما لا اذكره من الكتب والرسائل وأكثرها غير ذي بال .."[٢] ولأننا لن نرد على كل ما أورده عند طه من آراء تتعلق بالشعر والنثر الجاهليين بل سنرصد أوجه الالتقاء والاقتباس بين آرائه وآراء المستشرقين واقتباس بلاشير والتقائه معه في هذا الميدان ، والتي استطاع الأخير التوسع في عرضها ، مع ابتعاده إلى حدٍ ما عن روح التحامل ومسحة التعليم الأكاديمي التي طبعت كتاب في الأدب الجاهلي ، ويمكننا تقرير نقاط الاتفاق بين منهجيهما فيما يأتي :

---

[١] بلاشير : مستشرق فرنسي وضع كتابه في خمسينيات القرن الماضي والموسوم تاريخ الأدب العربي ترجمة د. إبراهيم الكيلاني في ثلاثة مجلدات .

[٢] مع طه حسين ، سامي الكيالي ، سلسلة اقرأ ، دار المعارف ، ١٩٥٢ ، ص٥٨ . ومما تجدر الإشارة إليه ان د. طه حسين نشر في الشعر الجاهلي مع إضافة بعض المباحث مرة أخرى بعد سحبه تحت مسمى في الأدب الجاهلي وهو ما ارتأينا ان يكون موضوع بحثنا الشمولية .

أولاً – علاقة اللغة العربية القحطانية (اليمنية السبأية والمعينية أو العربية الجنوبية) واللغة العربية الشمالية لغة قريش والحجاز بالشعر الجاهلي ، أو مظاهر اللغتين في مضان هذا الشعر وفي القرآن الكريم .

ثانياً – دراسة القرآن بوصفه اثراً فنياً وادبياً مع ملاحظة اختلاف عرض الرجلين لقضية استشراقية واحدة وعلاقة ذلك بالشعر الجاهلي .

ثالثاً – كيفية تدوين الشعر والنثر الجاهليين (الرواية والرواة) وأثرها في الأدب.

رابعاً – المحيط أو المجال العربي حدوده وتاريخه الإنساني وعلاقته العرب بالأمم المجاورة وصور التلاقح الثقافي بينهم وبين الأمم الأخرى في الشعر الجاهلي ، وهذه النقاط يأخذ بعضها برقاب بعض عندهما .

اللغة العربية وعلاقة الشعر الجاهلي بصورتها :

إذا توخينا الاختصار في هذه العلاقة ، فإننا نجد د. طه حسين يكرر نظرية الاستشراقي مرجلوث في اختلاف لغة الجنوب العربية عن لغة الشمال العربية مع استعانته بآراء العلماء القدماء قال : " وقد روي عن أبي عمرو بن العلاء انه كان يقول ما لسان حمير بلساننا ولا لغتهم بلغتنا وفي الحق ان البحث الحديث قد اثبت حلافاً جوهرياً بين اللغة التي كان يصطنعها الناس في جنوب البلاد العربية ، واللغة التي كانوا يصطنعونها في شمال هذه البلاد، ولدينا الآن نقوش ونصوص تمكننا من إثبات هذا الخلاف في اللفظ وفي قواعد النحو والتصريف أيضاً ، وإذن فلابد من حل هذه المسألة "[1] .

وكانت هذه أولى ركائز بحثه القائم على منهج الشك " ان اصطنع في الأدب هذا المنهج الفلسفي الذي استحدثه ديكارت للبحث عن حقائق الأشياء في أول هذا العصر الحديث ، والناس جميعاً يعلمون ان القاعدة الأساسية لهذا المنهج هي ان يتجرد الباحث من كل شيء كان يعلمه من قبل ، وان يستقبل موضوع بحثه خالي الذهن مما قيل فيه خلواً تاماً "[2]، والنص السابق المقتبس عن أبي عمرو بن العلاء يؤكد إن د. طه لم يستطع التجرد من كل ما التقطه في تعليمه ومعارفه من القدماء، وإلاّ لما جعل عبارة أبي عمرو التي أوردها ابن سلام[3] من بين أدلته على الشك ببعد لغة القحطانية عن العدنانية ، بل ان شك د. طه المعتمد على نظرية مرجليوث من تكفّل البحث الحديث ان صحت تسميته منذ ثمانينيات القرن الماضي بإثبات خطأه ، أورد د. خليل إبراهيم العطية إنكار أربعة من علماء العرب القدماء لشبه لغة الجنوب بلغة الشمال وهم : أبي عمرو بن العلاء (١٥٤هـ) وابن جني (٣٩٢هـ) ، وابن حزم الأندلسي (٤٥٦هـ) ، وابن خلدون (٨٠٨هـ)، ثم ساق د. خليل دليلاً على أوجه الشبه بل ومؤلفات في أدب لغة أهل

---

[1] في الأدب الجاهلي ، طه حسين ، دار المعارف بمصر ، ١٩٢٧ /١٠٢ . انظر : ما قاله بلاشير مغايراً تماماً ، نظرية د. طه م١/ ٢٧-٣٠ معتمداً أقوال ابن حوقل والمسعودي .

[2] المصدر نفسه ، ٨٤ .

[3] انظر : طبقات فحول الشعراء ، ابن سلام ، شرح محمود محمد شاكر م١/ ٩-١١ وكيف اقتبس رأي أبي العلاء وابن سلام ، ولم يذكر إشارة القدماء لها ، كذلك إشارة لاختلافها عن لغة العرب الموحدة أيام الرسول (ρ) .

الجنوب مثل كتاب (الإكليل) للهمداني (٣٥٠هـ) وهو في أمثال حمير وحكمها " واللسان الحميري وحروف المسند "[١] ، كما أشار لبحوث ومؤلفات في ألفاظ حميرية وردت في التنزيل العزيز مثل (اللغات في القرآن) لأبي إسماعيل بن عمرو المقرئ (٤٢٩هـ) وآخر للسيوطي (الإتقان في علوم القرآن) (٩١١هـ) بل نقل عن احمد بن فارس ان مما جاء في التنزيل العزيز الأرائك وأورد عن الحسن البصري قوله كنا لا ندري ما الأرائك حتى لقينا رجلاً من أهل اليمن فأخبرنا ان الأريكة عندهم الحجلة فيها السرير"[٢]، وإذا اعترض معترض بأن هذه الأقوال لعلماء لم يعرفوا النقوش ولا الاحفوريات التي أثبتت لبعض المستشرقين بُعد ما بين اللغتين نقول أورد د. خليل إبراهيم ".. لقد استطاع فلبي J. E. Philby من خلال حذقه تاريخ اليمن القديم وجغرافيتها القول انه يستطيع ان يدعي انه قرأ بقدر الاستطاعة وهضم الفعل كل النقوش العربية الجنوبية وعدتها ستة آلاف نقش ، وان يقرر في ضوئها ان اللغة العربية الجنوبية لا تختلف كثيراً عن العربية الشمالية ، ولا تعدو ان تكون شكلاً قديماً للشمالية التي اختفت منها كلمات لم تعد مستلزمات الحياة تتطلبها مما يتعلق بالآلهة الوثنية وأعمال الري والزراعة والتجارة البخور"[٣]، وفي النص أكثر من وجه لدحض نظرية د. طه في الشك بلغة الشعر الجاهلي المنسوب لشعراء اغلبهم قحطاني الأصل قبائلهم تنزل اليمن وقلتهم من قبائل " يقال انها قحطانية هاجرت إلى الشمال؟ ما خطب هؤلاء الشعراء وما خطب فريق من الكهان والخطباء يضاف إليهم نثر وسجع وكلهم يتخذ لشعره ونثره اللغة العربية الفصحى كما نراها في القرآن؟ "[٤]، وقد تقدم إحصاء علماء العربية لألفاظ يمنية في التنزيل فضلاً عن كتاب الأمثال الحميرية المفقودة وعليه بأن نزوح القبائل اليمنية غير منكر وتطور اللغات وموت بعض الألفاظ القديمة أمر لا ينكره علم اللغة والتطور الدلالي للألفاظ ويكفي ان نطلع على بعض ما أورده د. طه حسين في تغلب لغة قحطان المفترض على لغة عدنان بفعل السيادة السياسية والاقتصادية للقحطانيين على العدنانيين قبل الإسلام متخذاً سيادة العربية الفصحى على لغات الشعوب المقهورة بعد الإسلام دليلاً على تغلب القحطانية[٥] وقد رد على نفسه بنفسه ، اذ أثبتت الدراسات الحديثة هجرة فعلية لقبائل الجنوب اليمنية إلى الشمال مثل قبيلة كندة التي ينتمي إليها امرؤ القيس واستوطنت " نجد وتسلطت فيها وملك أبوه على بني أسد وتزوج من تغلب ، فنشأ امرؤ القيس في حجور العدنانية "[٦] ، وعلل لنا د. طه شكه في أن هذه القبائل تنتسب إلى قحطان مرة وتتردد أحياناً فتنسب إلى عدنان ، وليس من دليل قاطع على صدق دعواهم[٧]، ولكي يحكم غلق دائرة الشك دعم قوله بأن القرآن ذكر سيل العرم ، ولكنه لم يحدد تاريخه ولا كيفية تمزق سبأ كل ممزق ، ولم يسم قبائلها السبأية " ولم نستكشف بعد

---

[١] مجلة الخليج العربي ، م١٦ ، العدد ١٩٨٤/١ ، دراسات في اللهجات العربية في اللهجة الصنعانية ، ٤٧ .

[٢] دراسات في اللهجات العربية ، اللهجة الصنعانية ، ٤٨ .

[٣] م. ن ، ٤٨ .

[٤] في الادب الجاهلي ، ١١١- ١١٢ .

[٥] المصدر نفسه ، ١١١- ١١٤ .

[٦] المصدر نفسه ، ١١٤ .

[٧] م. ن ، وضرب لذلك مثلاً ادعاء الرومان انتسابهم للطروادبين المهاجرين من ايطاليا إلى طروادة وهذه من فنتازيا البحث .

نصوص تسمي هذه القبائل أو تدل على هذه المواطن وإذن فنحن لا نسرف ولا نغلو ولا نتجاوز العلم ولا القرآن حين نعلن في صراحة وقوة ان هجرة هذه القبائل بحينها إلى هذه المواطن بعينها تكلف كان بعد الإسلام واستغل فيه القصاص هذه النصوص القرآنية استغلالاً لأسباب سياسية يعرفها اقل الناس الماماً بالصلة بين القحطانية والمضرية بعد ظهور الإسلام"[١] وهي نظرية المستشرقين تبناها د. طه[٢] في حين ساق بلاشير أقواله الموافقة لأقوال طه في سورة سبأ السبئيين بحذر وقلل من جهد مؤلفي ومؤرخي المسلمين " وقد جهد المؤلفون والمؤرخون المسلمون حسب طريقتهم لإيضاح ما رمزت إليه الآية الكريمة بواسطة أحاديث مستقاة من التراث الشعبي ، مما اوجد أوصافاً غنية بالتفصيلات الدقيقة الساذجة واكسب التاريخ طابع الحكايات ومهما يكن من عدم الاطمئنان لهذه الظاهرة فان هناك أكثر من هذا ، فان النسابين لما وجدوا في الشمال والشرق قبائل تنسب إلى قحطان لم يترددوا في ربط هذا الحادث بتفرق سبأ . مما لا مجال للشك فيه عندهم بدليل وروده في القرآن "[٣] . وعاد بعدها ليورد ثلاثة أدلة على هذه الهجرة التي شكك شكك فيها وأدلته هي:

أولاً – النقوش التي شاهدها ليفي تعود لسنة (٤٤٩-٥٤٢) للميلاد التي تحدثت عن الخصب الذي وفره السد الذي أدى انهياره لنكبة الحضريين وانكفائهم للبداوة وشملت هذه النكبة حضرموت وليس سبأ وحدها .

ثانياً – وجود أمراء مؤابيين في زمن الرسول (ρ) في شرقي الأردن اسم احدهم شرحبيل وفي شرقي نجد أمراء ينتسبون لقبيلة كندة اليمانية في القرن الخامس يسمون شرحبيل أو معدي كرب ، وهي أسماء عربية جنوبية .

ثالثاً – قبيلة كندة التي نزل قسم منها نجداً وأسس إمارة فيها والقسم الآخر حضرموت وقبيلة الازد التي نزل قسم في السراة في حافة اليمن الشمالية والقسم الآخر في عمان ، وادعاء الأوس والخزرج انتسابهما للازد إلى غيرها[٤] وكان أكثر احترازاً من د. طه ، بل واشد إنصافاً في تعريف القارئ بجهود المستشرقين ، والعلماء المسلمين القدماء في هذا المضمار وان اغفل الإشارة لمؤلفاتهم في هذا الميدان مكتفياً بنقل المعلومات عنهم بمثل قوله " ويظهر ان ما بتناقله المسلمون قد حفظ ذكرى هذه الهجرات " أو " تكلم فيها الرواة المسلمون كما كانت الحال في قبيلة تغلب "[٥] .

والتقط كما فعل غيره العامل السياسي الذي اعتمد عليه د. طه في دراسة الأدب الجاهلي وتاريخ الأدب العربي كما سيأتي فقال " ومن المرجح جداً ان انقسام إياد إلى مجموعتين كان بتأثير صدمة العناصر الجنوبية العربية .. غير انه تعوزنا هنا البراهين اذ لا نستطيع ان نثبت مثلاً ان تأثير العناصر اليمنية كعاملة وجذام كلب ظاهرة سابقة للمنازعات التي حدثت بين تلك

---

[١] في الأدب الجاهلي ، ١١٥ .

[٢] انظر : إشارات بلاشير في تاريخهم ، م١/ ٣ وهامشه او ٢ أو قدم بحوث المستشرقين في هذه النظرية منذ ١٨٦٦

[٣] .تاريخ الأدب العربي ، م١/٣٠ .

[٤] ينظر : تاريخ الأدب العربي ، م١/ ٣١-٣٢

[٥] م ، ن ، م١/٣٣ .

القبائل زمن الأمويين ومهما يكن من أمر فاننا نقر منذ أواخر القرن السادس بوجود تبلور آخذ في الحدوث حول نواة مركزية تنسب إلى اليمن الا وهي غسان "[١] وعكس بلاشير عرض فكرة د. طه في استخلاص حياة العرب في جاهليتهم من الشعر واكد إمكانية استخلاصها من القرآن الكريم وحده ، فعمد بلاشير إلى وصف معيشة القبائل العربية وفردية العربي لأنهما مؤثران هامان في طبيعة الإنتاج الأدبي العربي ، في الوقت الذي لم يستطع فيه طه ان يقدم تعليلاً لإنتاج الشعراء المخضرمين الذين عاصروا الرسول(ρ) لاسيما إنتاجهم الجاهلي قبل الإسلام ، فهل خلا هذا الإنتاج كله من صورة الحياة الجاهلية؟[٢] والمتتبع لآراء د. طه حسين يرى ان ربطه للخلاف بين لغة الجنوب ولغة الشمال العربيتين واعتماده القرآن الكريم مصدراً وحيداً لوصف ودراسة الحياة الجاهلية[٣]، هو الذي أوقعه في هذا الإشكال ، لان القرآن كتاب سماوي مقدس ودستور سياسي واجتماعي واقتصادي في عرضه لأحوال امة العرب في الجاهلية ، وليس من المعقول ان نطلب في نتاج الشاعر الجاهلي وصفاً لعلاقة العرب بالأمم الأخرى ، والعبر من إبادة الأمم الغابرة والإحكام الشرعية والمواريث ، أو ان نتوهم قدرة الشاعر ملكاً كان أم صعلوكاً على تقدير شريعة للدين أو للتجارة والمواريث أو ان يعنى بوصف حال الأغنياء والمعدمين في مجتمع الجزيرة البدوي ، ومع ذلك فنحن لا نعدم وصفاً لحال الفقر الذي عاناه شاعر مثل طرفة في معلقته أو سؤال العطاء عند الاعشى والحطيئة أو استعطاف الملوك عند النابغة أو الثأر في دالية دريد بن الصمة أو الفخر المصطنع والمتبجح عند عمرو بن كلثوم في معلقته ولهذا قلت ان بلاشير كان أكثر فطنة في وصف فردية العربي وطرائق معيشة القبيلة والتقى مع د. طه في شدة اسر الأطر التقليدية التي حاصرت الشاعر والذائقة العربية[٤]، ان لم نقل انها ظاهرة تنصرف إلى مفاصل حياة العرب بأجمعها ، ونراها الآن في كثير من الميادين قال د. طه : " فلست اعرف امة من الأمم القديمة استمسكت بمذهب المحافظة في الأدب ولم تجدد فيه الا بمقدار كالأمة العربية ، فحياة العرب الجاهليين ظاهرة في شعر الفرزدق وجرير وذي الرمة والأخطل والراعي أكثر من ظهورها في هذا الشعر الذي ينسب إلى طرفة وعنترة وبشر بن ابي حازم "[٥].

وعبارة بلاشير اقل حدة من عبارات د. طه فان " .. نظم القصائد الوحيدة القافية انتهى بأن حرم على الفنان اللجوء إلى ادوار موآتية للتعبير عن الانا ، مع ان الشعراء السابقين لسنة ٥٠هـ/٦٧٠م ، ولعل ذلك أكثر حدوثاً في العهد اللاحق جهدوا هنا وهناك في كسر هذا الطوق الحديدي ، وذلك باستعمالهم التضمين بمناسبة بعض التشبيهات المقولبة ، وهكذا فقد حاول الفنان المسكين الفرار من استبداد ليكابد استبداد آخر .

---

[١] م. ن ، م١/٣٤ .

[٢] ترجم بلاشير لعدد غير قليل من الشعراء المعاصرين لرسول الله (ρ) ، م٢/ ٨٢-٨٤ ، مالك متمم ابني نويرة على سبيل المثال لا الحصر وعمرو بن الاهثم .

[٣] في الأدب الجاهلي ، ٨٨- ١٠٠ .

[٤] تاريخ الأدب العربي م٣/ ١٣٨-١٤٥ .

[٥] في الأدب الجاهلي ، ٨٨ .

ان المفردات واللغة التي استعملها شاعر ذينك العهد والمجال تتناسب مع ما تستثيره فينا كلمة بدوي"[١]، وهو رأي منقول بتصرف وتشويه عن مستشرقين أفذاذ سبقوه في دراسة مشاكل رواية الشعر الجاهلي وطبيعة الحقيقة للصورة التي وصل بها إلينا شفاهاً أو رواية ، ومع ذلك لو استقرأنا آراءه في انطباق هذا الرأي على الشعر الإسلامي والأموي لوجدنا فيه شيء الكثير من الصحة ، ولم يفته ذكر ذلك لا هو ولا د. طه وقال الأخير : (وهم بعد هذا يختلفون اختلافاً كثيراً .في رواية القصيدة في ألفاظها وفي ترتيبها ... وليس هذا الاختلاف مقصوراً على هذه القصيدة ، وإنما يتناول الشعر الجاهلي كله ، وهو اختلاف شنيع يكفي وحده لحملنا على الشك في قيمة هذا الشعر ، وهو اختلاف قد أعطى للمستشرقين صورة سيئة كاذبة من الشعر العربي ، فخيل إليهم انه غير منسق ولا مؤتلف وان الوحدة لا وجود لها في القصيدة وان الشخصية الشعرية لا وجود لها في القصيدة أيضاً ، وانك تستطيع ان تقدم وتؤخر ، وان تضيف إلى الشاعر شعر غيره دون ان تجد في ذلك حرجاً أو جناحاً ، ما دمت لم تخل بالوزن ولا القافية ، وقد يكون هذا صحيحاً في الشعر الجاهلي ، لان كثرة هذا الشعر منحولة مصطنعة ، فأما الشعر الإسلامي الذي صحت نسبته لقائليه فأنا أتحدى أي ناقد ان يعبث به اقل عبث دون ان يفسده ، وأنا ازعم ان وحدة القصيدة فيه بينة "[٢] . ومن أقوال تيودور نيلدكه (من تاريخ ونقد الشعر العربي القديم) اقتبس د. طه هذا الرأي وما بعده من تحليل لمقاطع قصيدة امرئ القيس المطولة قفا نبك وما نالها من تقديم وتأخير وعبث في رواية ألفاظها بفعل الذاكرة ، وما فعله د. طه لا يتعدى السرقة البليدة لتحليل الرجل مع اضافة بعض المقترحات لتعليل ما قدمه من ملاحظات في رواية المطولة ، وإذا استعرضنا آراء نيلدكه نجدها أكثر صواباً لوصف حال الشعر الجاهلي في القرنين الأول والثاني الهجري ، قال : "ومن الصعوبات البالغة في فهم القطع الشعرية انها مقدمة لنا منتزعة من سياقها ، وبناء القصائد العربية ، وهي تتألف من سلسلة من الصور التي تصور للقارئ مختلف جوانب الحياة العربية ، وفيها كل بيت مستقل بذاته تقريباً ، نقول ان هذا البناء ساعد على ظهور عادة إيراد شذرات منفصلة ، تؤلف لذاتها كلاً معلوماً ، خصوصاً إذا كان السامع أو القارئ يعرف السياق أما بالنسبة إلينا فمن المفهوم ان مثل هذه الشذرات تكون غالباً في غاية الغموض ، وكان فهم القصائد القديمة سيكون أوضح كثيراً لو وجدت عندنا كاملة وفي وحدة نصها التام ذلك انه لاشك في ان شذرات الشعر العربي القديم كما هي عندنا الآن تختلف اختلافاً شديداً عن صورتها الأصلية ، فأدب شعب من الشعوب لا يمكن ان يبقى في صورته الأصلية وقتاً طويلاً بدون مساعدة الكتابة "[٣] .

---

[١] تاريخ الأدب العربي ، م٣/ ١٣٣-١٣٤ ، وهو رأي لطيف المستشرق تيودور نيلدكة ، راجع دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي ، د. عبد الرحمن ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط١ ، ١٩٧٩ ، ، ١٧-٤٠ ، المقالة الأولى ، معظم ما جاء فيها ، د. طه وادعاه لنفسه في الأدب الجاهلي ، ٢٤٥-٢٦٦ .

[٢] في الأدب الجاهلي أ ٢٥٨-٢٥٩ .

[٣] دراسات المستشرقين ، القسم الأول ، (من تاريخ ونقد الشعر العربي القديم نيلدكه) ، ٢١ -٢٢ وتاريخ مقالته ، ١٨٦١م .

كما كان نيلدكه أكثر إنصافاً وعلمية في وصفه لعيوب منهج الرواة القدامى قال :" وحتى في مدارس العارفين بالأدب بقيت عادة نقل القصائد بالرواية الشفوية غالباً ، لكن اشتد الحرص على عدم تغيير النصوص تغييراً اعتباطياً ، لكن هذا الحرص لم يظهر في مدارس العلماء الحقيقية إلاّ ابتداءً من العصر العباسي ، أما الذين اهتموا بمسامرة الباذلين للعطاء في الزمان الأسبق من العصر العباسي فقد سلكوا مسلكاً يتسم بالاستهتار وعدم المسؤولية ، صحيح انه لا ينبغي لنا ان نطالب رجلاً مثل حماد الراوية المتوفى بعد منتصف القرن الثاني ان يدقق في آلاف القصائد التي كان يحفظها تدقيقاً علمياً فيلولوجياً وان يرويها للخلف كما هي في نصها الأصلي دون ادني تغيير .... ذلك انه مهما يكن من قوة الذاكرة عند العرب ، كما هي الحال عند كل الشعوب الموهوبة التي تندر أو تنعدم فيها الكتابة ، مما لا نستطيع ان نتصوره في عصرنا الحاضر الغارق في الكتابة ، فإن أقوى الذاكرات لا تستطيع ان تحول دون حدوث تغيرات تدريجية قوية فيما تحفظ"[١].

وعمد بلاشير إلى استخلاص مؤثرات سياسية وبيئية ولغوية وعرقية أسهمت في ترسيخ هذه الاطر ضمن توسع المجال العربي (حواضر العراق والشام بشعرائها) كما حدده مفيداً من دراسات المستشرقين قبله ومؤسساً نظريته على بعض من نظرية ابن سلام في تقسيم الشعراء على بيئات مثل شعراء اليهود وشعراء القرى[٢]. وهذا جلي جداً في اقتباسه لترجمة هؤلاء من ابن سلام في طبقاته ومن المرزباني في معجم الشعراء ، لاسيما وانه احتفظ بالترجمة نفسها للشاعر في كتابه بأجزائه الثلاثة .

العامل الثاني : القرآن وأثره في دراسة الشعر الجاهلي واللغة العربية ومجالها

التقط طه حسين هذا المؤثر الضخم في حياة اللغة العربية وآدابها وتاريخها معتمداً في ذلك مصدرين هما : علماء اللغة العربية القدماء وجهودهم التي أنكرها واقتبس أطرافاً منها استطاع لم شتاتها في تقديمه الدراسات القرآنية سبباً لنحل الشعر الجاهلي ، كما اخذ عن المستشرقين كثيراً من آرائهم ، وأول ما نلحظه من مخالفته لآراء القدماء هو عكسه الاستشهاد على ألفاظ القرآن بالشعر الجاهلي واعتراضه على ذلك بأن الشعر يجب ان يقاس على ألفاظ القرآن وهي آراء لطالما ناقشها علماؤنا الأوائل ، قال البغدادي : "... أما ربنا تبارك وتعالى فكلامه عز اسمه أفصح كلام وابلغه ، ويجوز الاستشهاد بمتواتره وشاذه كما بينه ابن جني في أول كتابه المحتسب ، وأجاد القول فيه "[٣].

ونص البغدادي أمين جداً في إظهار (استشهاد علمائنا بلغة القرآن قبل الشعر والحديث ، كما ان البغدادي لم ينكر جهد من سبقه من العلماء (ابن جني) وخص كتابه بالذكر (المحتسب) كما فعل في أكثر من موضع ، في حين اقتبس د. طه حسين والمستشرقون آراء علمائنا من غير الإشارة إليهم ، وهي قضية خطيرة في امتهان الأمانة العلمية ، وحتى عمل المستشرقين لم يخل

---

[١] دراسات المستشرقين ، نيلدكه ، ٢٢ .

[٢] انظر : ابن سلام ، م١/٢١٥ – ٢٩٦ ، شعراء القرى العربية ومكة والطائف والبحرين .

[٣] خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، عبد القادر بن عمر البغدادي ، ط١ ، المطبعة الميرية ، بولاق ، م١ /٤ .

خلواً تاماً من الإشارة لآراء علماء القدماء . أو حتى جمع الآراء وطرحها على سبيل الاستقصاء والاستنتاج ، قال هـ. الفرت :" من المعلوم ان كل الدراسات اللغوية انطلقت من القرآن ومن حديث النبي محمد (ρ) ، الأول يحتوي على قواعد الإيمان ، والثاني يتعلق بالحياة المدنية يخبر عنها ويشرع لها ... ومن المؤكد ان محمداً لم يكتف بأن يبلغ أتباعه آراء جديدة ، بل اوجد أيضاً ألفاظاً جديدة ، اعني انه أعطى معنى جديداً لم يكن معروفاً لعبارات وألفاظ معروفة ، ومقدار أمثال هذه الألفاظ الإسلامية ليس بالقليل لكن لم تقتصر صعوبة الفهم على هذا ، بل الأمر الرئيس هو ان القرآن والحديث كانا بلهجة قريش ، وهي لهجة لم يكن يفهمها غير القرشيين إلاّ نصف فهم ، وفي وطن النبي لم يكن ثمة حاجة إلى تفسير ، أما خارج وطنه – وهناك كان القسم الأكبر من المؤمنين – شعر الناس بالحاجة إلى هذا التفسير "[١].

وقد اختلفت آراء المستشرقين في هذه الحجة فمنهم من كانت له نظريات متعددة مقبولة ، قال جريفسفلد في مسألة صحة الشعر الجاهلي : "وإذا كانت لغة الشعر العربي تختلف اختلافاً شديداً عن سائر اللهجات العربية الجنوبية ، فأن هذا لا يدل إلا على ان هذه الدول لم تشارك في الثقافة المشتركة لشعر البدو ، دون ان يتضمن هذا المكان مشاركة بعض الأفراد في هذا الشعر ، اذ نحن نجد في العصر الجاهلي كان يوجد كثير من العرب الجنوبيين يتكلمون لغتين اثنتين"[٢]. وناقش ما قاله مارجليوث ، فيما يتعلق بانتحال اللغويين العرب معتمداً على آراء الفرت وهي ذاتها التي اعتمدها د. طه في الشك بصحة الشعر الجاهلي ، مع ملاحظة ان مقالات المستشرقين تناولت موضوعات مفصلة ، وناقشت جزئيات هي ظواهر في استقراء مجاميع الأشعار والمختارات والدواوين الشعرية الجاهلية لا كما فعل د. طه من تعميم هذه الجزيئات على تاريخ الأدب العربي ونقده ودراسته ، فبعض الأخبار المنقولة عن انتحال الرواة وفقدان الثقة في رواية كثير منهم وجدت لها تعليلاً ،عند جريفسفلد قال : " ولا نزاع في ان هناك دواعي عديدة للتزويرات المقصودة ، وقد أورد الفرت أخباراً عديدة عن الكشف عن الانتحال بواسطة اللغويين العرب وجمع ملاحظات عن صحة القصائد العربية القديمة ، ويضيف مرجليوث إلى هذه عدداً آخر وتكرار نفس الأخبار يدل على ان الأمر يتعلق بعدد ضخم من التزويرات ، ثم ان التحاسد بين مختلف الرواة بعضهم وبعض يقدم لنا ضماناً كافياً على ان كل الكشوف عن التزويرات والشكوك المؤسسة على براهين قد وصلت إلينا وسير تشارلز لبال ... يفترض ان جزءاً على الأقل من مثل هذه الأخبار هو من اختراع منافسين حاسدين ، أما انه من الأمور المشكوك فيها أن نقول مع مرجليوث ان روايات اللغويين الشعرية هي تزوير ، أو ان كل الأخبار عن الكشوف عن التزويرات بواسطة نفس الرواة هي أخبار صحيحة "[٣]، وضرب لهذا الأمر مثلين اقتبسهما من الأغاني للاصبهاني حول انتحال حماد بيتين على البديهة إمام المهدي

---

[١] دراسات المستشرقين ، ملاحظات عن صحة القصائد العربية القديمة ، مقالة لـ هـ. الفرت ، ٤٣ ، وهي آراء سبقه اليها غير واحد من المستشرقين تيودور نيلدكه ، مقالات في كتاب منها (من تاريخ ونقد الشعر العربي القديم) في دراسات المستشرقين ، ١٧-٤٠ .

[٢] م. ن ، مقالة أ. برونلش ، في يفسفلد في مسألة صحة الشعر الجاهلي ، ١٣٢ .

[٣] دراسات المستشرقين ، ١٣٥ .

، والمفارقة في هذا الخبر ان وفاة حمادة ١٥٥هـ ، وتولي المهدي الخلافة سنة ١٥٨هـ وعلى فرض حدوث الأمر قبل تسنمه الخلافة ويبقى ان مكان الحادثة في قصره في عيسى اباد و "بحسب الطبري ، ج٣ ، ص٥٠٢ كان بناؤه في سنة ١٦٤هـ"[١]، وعلى الرغم من الجهود الجبارة الجبارة التي نجدها في أعمال المستشرقين في استقراء تراثنا الشعري ، الا ان كثيراً منهم يعتمد الانتقاء في نقل الأخبار ، فعلى سبيل المثال لا الحصر ، استنتج مرجليوث من مظاهر إسلامية في إشعار الجاهليين ، أو ورود لفظ الله في قسمهم[٢]، معتمداً استنتاج شيخو ان هذا دليل نصرانيتهم ، ولكنه يذكر الأصل الذي نقل عنه ، فقصب السبق في هذا القول للاصفهاني قال :"... اخبرني الحسين بن يحيى عن حماد عن أبيه عن أبي عبيدة قال :"بلغني ان هذا البيت في التوراة ، ذكره غير واحد عن أُبَيّ بن كعب يعني قول الحطيئة .

لا يذهب العرف بين الله والناس

قال اسحاق وذكر عبد الله بن مروان عن ايوب بن عثمان الدمشقي عن عثمان بن أبي عائشة قال : سَمِعَ كعبٌ الحِبْر رُجلاً ينشد بيت الحطيئة مَنْ يفعل الخير لا يعدم جوازيه ...

فقال والذي نفسي بيده ان هذا البيت لمكتوب في التوراة ، قال اسحاق قال العمري: والذي صح عندنا في التوراة لا يذهب العرف بين الله والعباد...."[٣] .

وهذا دليل ناصع على سرقة المستشرقين آراء القدماء من علماء العرب ، وانكار جهودهم العلمية ، ومن بعدهم اعتمد د. طه هذا الصنيع الا وهو انه جعل مظاهر الروح الاسلامية (التوحيدية) دليل نحل ابيات جاهلية كثيرة ، ومع ذلك نجده يذكر بعض الابيات للمتلمس ورد فيها لفظ (الله) كقوله : "فيكفي ان تقرأ سينيته التي أولها

يا آل بكر الا لله امكم   طال الثواء وثوب العجز ملبوس

لتحس تكلف القافية على ان هذه القصيدة مضطربة الرواية ، فقد يوضع اخرها في اولها ، وقد يروي مطلعها :

كم دون مية من مستعمل قذف   ومن فلاة بها تستودع العيس[٤]

ويبدو انه كان يعلم ان اقتباسه المضامين التوحيدية في شعر الجاهلين ، كفيل بفضح اقتباسه هذه النظرية وان المستشرقين فعمد إلى اعتماد (المعنى واللفظ الغريبتين) في تمييز الصائب من المنحول في أشعار الجاهليين وغض الطرف عن (إلاّ لله) في بيت المتلمس ويبدو انه قرأ كما فعل قبله المستشرقون آراء الاصبهاني في اقتباس العرب كثيراً من معارف الأمم التي جاورتها أو أصحاب الديانات التي عاشت معهم مثل (الفرس ، اليهود ، النصارى) .

فليس بمستغرب عندهم القسم بالله أو بالتوراة. فضلاً عن قصة عاد وثمود التي ورد ذكرها في القرآن ونجد لها صدى في أشعار بعض الجاهليين[١] قال طه في ذلك : ((... ونحو

---

[١] م ، ن ، مقال جريسشلد ، ١٣٦ .

[٢] م. ن ، مقال مرجليوث ، ١١٠-١١١ .

[٣] الأغاني لأبي الفرج الاصفهاني ، ت: إحسان عباس إبراهيم السعافين بكر عباس ، دار صادر ، بيروت ، ط٣ ، ٢٠٠٨ ، ج١١٣/٢ .

[٤] في الأدب الجاهلي ٢٨٩ - ٢٩٠ .

آخر من تأثير الدين في نحل الشعر، وذلك حين ظهرت الحياة العلمية عند العرب بعد أن اتصلت الأسباب بينهم وبين الأمم المغلوبة. فأرادوا هم أو الموالي أو أولئك وهؤلاء أن يدرسوا القرآن درساً لغوياً ويثبتوا صحة ألفاظه ومعانيه. ولأمر ما شعروا بالحاجة إلى إثبات أن القرآن كتاب عربي مطلق في ألفاظه للغة العرب فحرصوا على أن يستشهدوا على كل كلمة من كلمات القرآن بشيء من شعر العرب يثبت أن هذه الكلمة القرآنية عربية لا سبيل إلى الشك في عربيتها. وأنت توافقني في غير مشقة على أن من العسير، كما قدمت في الكتاب الأول، أن نطمئن إلى كل هذا الشعر الذي يستشهد به الرواة والمفسرون على ألفاظ القرآن ومعانيه.. وإنما نعيد شيئاً واحداً، وهو أننا لا نعتقد أنه إذا كان هناك نص عربي لا تقبل لغته شكاً ولا ريباً وهو لذلك أوثق مصدر للغة العربية فهو القرآن. وبنصوص القرآن وألفاظه يجب أن نستشهد على صحة ما يسمونه الشعر الجاهلي، بدل أن نستشهد بهذا الشعر على نصوص القرآن))[٢].

وهذا كلام معظمه غير دقيق، فلا أحد من علماء العربية والفقه والتشريع قال أن ألفاظ القرآن كلها عربية، بل هناك عشرات الكتب في المعرب من ألفاظ القرآن والأعجمي[٣] وأن الاستشهاد بالقرآن على عربية ألفاظ جاءت في الأشعار هو ديدن علماء اللغة والنحو ((قال ابن قتيبة : المشكاة : الكوة بلسان الحبشة. غيره كل كوة غير نافذة فهي مشكاة))[٤] ولم يكتف العلماء بالاستشهاد من الجاهليين بل ومن أشعار المخضرمين والإسلاميين[٥] والكلام في هذا لا تسعه عجالة استقراء منهج الرجلين، فإذا عدنا للقوالب الشعرية التي ظهرت في قصائد الجاهليين وامتدت بعدهم لقصائد الإسلاميين فشعراء العصر الأموي، وبعض من شعراء العصر العباسي نجد بلاشير أكثر فطنة في وصف فردية العربي وطرائق معيشته ومعيشة القبيلة التي حاصرت الشاعر، والذائقة العربية، وهي ظاهرة تنصرف إلى مفاصل الحياة العربية بأجمعها، وهي آراء اجمع عليها اغلب المستشرقين قبله انطلاقاً من نظرهم لتاريخ العرب بوصفهم بدواً على حد تعبيرهم في سفر الحكمة (العهد القديم من الكتاب المقدس)[٦] قال مارجليوث : ((وفي معظم القصائد المنسوبة إلى الشعراء الأوائل ما يسمى قصائد مناسبات، وفيها تسجيل لتجارب لتهم إلا أصحابها وحدهم أو على الأفضل بعض أهل قبائلهم. ولا يمكن إنكار أن العربي الذي يطلق زوجته أو يغير على جمال أو يذبح عدوه ربما نظم قصيدة في هذا الموضوع، وحيثما اشترك

---

[١] في الأدب الجاهلي ١٦٧-١٦٨ تحت مسمى الدين ونحل الشعر اعتمد فيه أفكار الاصفهاني وشيء من سيرة ابن هشام ومن تفسير الطبري وطبقات ابن سعد وجمهرة أشعار العرب ومن أراء ابن سلام في طبقاته. والمعرب من الكلام الأعجمي ٢١-٢٢.

[٢] في الأدب الجاهلي ١٧٤-١٧٥.

[٣] أنظر المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم للجواليقي، وما جاء في الجمهرة لابن دريد، وفي القاموس المحيط للفيروز آبادي.

[٤] المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم. الجواليقي وضع حواشيه وعلق عليه خليل عمران المنصور ١٤٥.

[٥] الاستشهاد بشعر جرير ورؤبة والفرزدق والطرماح.. الخ.

[٦] أنظر دراسات المستشرقين مقالة مارجليوث ١٢٧-١٢٨.

أشخاص عديدون في مثل هذه الأعمال، فلربما سجل كل واحد منهم تجربته على هذا النحو. لكن هو راس مصيب جداً حين يقول : لو صمتت الأوراق عن ذكر ما فعلت من خير فلن تنال المكافأة، لابد أن يكون التسجيل على ورق أو ما يساويه، والا لما كان لمثل هذه التأليفات من خط في الحفاظ عليها[١] ويبدو أنه يقيس على ذلك بأشعار العباسيين في مدح أعمال الخلفاء مثل أشعار أبي تمام في المعتصم (فتح عمورية) إلى غيرها من هذه الأحداث ولم يلتفت إلى اماديح الجاهليين والمخضرمين لملوك غسان والحيرة فضلاً عن مثال مدائح زهير لهرم وصاحبه وهذا يعني تعميمه نظرة ضيقة تعميماً واسعاً من استقراء بعض الأخبار المتضاربة في الأغاني ودواوين الخطيئة وعنترة ولبيد والهذليين وشعراء النصرانية على (الشعر الجاهلي) كله إن صح استخدامه لهذه المصادر، أو التقاطه لبعض الآراء التي أوردها علماء العربية القدماء ليجسسها ويضخمها، بعض ويقلب زواياها، فترتد بالسلب على فكرته وبحثه[٢] وهو تماما ما فعله طه حسين مع الإشارة إلى نزاهة مارجليوث وغيره في الإشارة إلى بعض اقتباساته من الأقدمين، وتغافل طه حسين عن هذه الإشارات عن عمد، بل وإغفاله اقتباسه أكثر من سبعين بالمائة من أفكار مارجليوث وأصحابه في صحة الشعر الجاهلي، مع توسع في هذا الاتجاه أو ذاك مما مر عليه المستشرقون مروراً طفيفاً. وحين نعود إلى منهج بلاشير في كتابه نجد تطوراً في النقل عن طه حسين بالتخفيف من حدة الآراء المشككة إدراكاً منه لحقيقة وجود الشعر قبل الإسلام، كما فعل في وصف القوالب الشعرية الصلبة التي صبغت نتاج شعراء الإسلام في (صدره وفي العهد الأموي)[٣] واستطاع استخلاص مؤثرات سياسية وبيئية ولغوية وعرقية أسهمت في ترسيخ هذه الأطر ضمن توسع المجال العربي الذي شمل حواضر العراق والشام بشعرائها. ومع ذلك يبقى لطه سبقه في الترويج لنظريات على درجة عالية من التعصب للعرب ظاهرياً والتأسيس لاصطلاحات سياسية في تاريخ الأدب العربي ونقده، والفتح لابواب في الدراسات ذات الاتجاه السياسي في الدراسات النقدية والتاريخية لظواهر الأدب العربي ولاسيما الجاهلي الذي شكك في جاهليته، مجاراة لاتجاه المستشرقين في دراسة الأدب العربي وتاريخه، مثل اقتباسه إشارة مارجليوث في دراسة الحياة الجاهلية من القرآن وحده، وتوسعه في هذه الفكرة وإنكاره وجود تفاصيل الحياة الجاهلية في الأدب والشعر الجاهلي، ودليل ذلك أنك تجد أثر هذه الأفكار في عشرات الرسائل والاطاريح الجامعية، فضلاً عن المؤلفات والبحوث في الحياة العربية، والفروسية والمرأة وطفولة الأشياء والكرم والقصة والحوار في الشعر الجاهلي، فضلاً عن إضفاء روح الجرأة

---

[١] دراسات المستشرقين مقالة مارجليوث ١٢٣ وتجدر الإشارة إلى أن تاريخ مقالة ١٩٢٥ ما يعني تقدمه على د. طه في هذه الآراء التي اقتبسها طه حسين وأنكر إمكانية استخلاص حياة الجاهلية من الشعر وان القرآن هو المصدر الوحيد لمعرفة حياة الجاهلية اقتصادياً واجتماعياً وفكرياً. هذا فضلاً عن تصريحه بان القرآن هو النص التاريخي الوحيد الموثوق بتدوينه في الجاهلية في حين المح لهذا مارجليوث في النص أعلاه.

[٢] أنظر ما أورده في أثر القرآن في أشعار الجاهليين ١٢٧-١٢٨ مما يعني جزمه بنحلها مع استخدامها أمثلة لحياة البدو والرعاة.

[٣] أنظر تاريخ الأدب العربي م٣/١٢٨-١٤٥ ويلاحظ أن تحديد بلاشير الزمني للشعر الإسلامي ٥٠هـ/٦٧٠م إلى ٦٠٧هـ/٧٢٥م.

في البحث القرآني وأصول اللغة ونشأتها (اللغة العربية) وعلاقتها باللغات السامية[١] وأثار طه حسين فرضيات لم يغفلها علماؤنا القدماء، ولكنه أضفى عليها لمحة الاستشراق بعرضها من زاوية أخرى غير التي تناولها المؤرخون والأدباء من الكتاب، مثل بحثه في لفظ (العرب) وتحديد معناه وفهم القدماء له وفهم المحدثين (المستشرقين) من اللفظ، وتحديد الجغرافيين لسكان البلاد العربية من القدماء والمحدثين[٢]. ولكنه مع ذلك وقع في مطب نظرياته السياسية في تفسير الظواهر الأدبية واللغوية، قال في منطق غلبة لغة على أخرى كانت اللغة العربية الفصحى إذن لغة أدبية للعرب وغير العرب بعد ظهور الإسلام، فأما قبل ظهور الإسلام فقد نحب أن تبين كيف استطاعت لغة العدنانية أن تكون لغة أدبية للقحطانية. ونحن نعلم أن السيادة السياسية والاقتصادية التي من شأنها أن تفرض اللغة على الشعوب. قد كانت للقحطانيين دون العدنانيين. ونحن نعلم أن الحضارة التي من شانها أن ترفع أمر اللغة وتفرضها على الشعوب كانت للقحطانية دون العدنانية))[٣] مع تشديده على قول الرواة والمؤرخين فيما يختص بإذلال القحطانية للعدنانية وإخضاعهم لسلطانها في اليمن وتسلط فريق منها على أطراف العراق والشام على الرغم من دخولها تحت حماية الفرس والروم ، إلا أن قوله يفتقر التحديد الزمني، ويستلزم السؤال هل كان للروم والفرس سيادة أيام سيادة سبأ؟ وأين كانت؟ أو حتى في أيام غيرها من ممالك اليمن! وكيف استدل على ذلك من قول الرواة والمؤرخين العرب الذين رفض روايتهم للشعر الجاهلي ولأخبار الجاهلية، وعلة ذلك أن طه حسين أراد ترسيخ بعض المصطلحات الخاصة به في نقد الأدب العربي وتاريخه، فضلاً عن هاجس المؤثر السياسي ، الذي زعم أن تأثيره لم يكن دوماً موافقاً في ارتقاء الحالة السياسية مع ارتقاء النتاج الأدبي ، ودليل هذا قوله في مقاله الموسوم مسيرة الشاعر الكبرى عن المتنبي ((ثورتان كبريان هزتا العراق هزاً عنيفاً في أواخر القرن الثالث للهجرة. أولهما كانت ثورة الزنج، أما الأخرى فكانت ثورة القرامطة. ثورتان مختلفتان في ظاهر الأمر، غير أنهما تشتركان في خاصيتين. فقد انبثقت كلتاهما عن حركة اجتماعية عميقة، واتسمتا بالعنف الشديد))[٤] وأصر على المؤثر السياسي في شعره، مستخلصا ذلك من نزوله في بيئات سياسية مختلفة عربية أو تركية أو سلجوقية وأثر ذلك في قصائده ، وقاس حال العالم العربي ما بين الحربين العالميتين بحاله أيام المتنبي لأنه ((عالم ينس ماضيه ولم يتهيأ بعد لنسيانه. وهو لا يستطيع أن يتعزى عن فقدان ما كان له من أهمية في الماضي وعن خضوعه للسيطرة الأجنبية. وكان الأجنبي في عصر المتنبي فارسياً أو تركياً أو زنجياً، وهو اليوم يأتي من

---

[١] أنظر أطروحة د. هاشم الطعان. الأدب الجاهلي بين لهجات القبائل واللغة الموحدة ١٣٩٨-١٩٧٨م دار الحرية للطباعة بغداد.

[٢] أنظر في الأدب الجاهلي ١٠٢-١٠٤.

[٣] م.ن ١١٢-١١٣ وهي فكرة مارجليوث أنظر دراسات المستشرقين مقالته ١١٨-١٢٣ مع اختلاف تسمية عدنانية وقحطانية إلى حميرية وحجازية أو لغة القرآن. وهذه سرقة فاضحة من د. طه حسين لطروحات هذا المستشرق المتعصبة.

[٤] من الشاطيء الآخر طه حسين في جديده الذي لم ينشر سابقاً جمعها وترجمها عن الفرنسية عبد الرشيد الصادق محمودي ط١/١٩٩٠ بيروت ٨٩.

الغرب ولكن الشعوب العربية ترى سخطها وآمالها في هذا الشعر الذي يتميز بالكبرياء الجامحة. بيد أن القيمة النهائية لشعر المتنبي لا ترجع إلى ذلك الاعتبار فهذا الشعر وإن كان مصنوعاً متكلفاً من حيث الشكل يتمتع بخاصية تعد ركيزة أساسية لا بالقياس إلى الشعر العربي وحده ولكن بالقياس إلى الشعر العالمي بصفة عامة))[١] وأنت ترى أن لفظي مصنوعاً متكلفاً تعني اتسامه بألفاظ البداوة على الرغم من أحكام الوحدة الموضوعية والموهبة فيه ،وإذا عدنا للنقوش التي تكلم عنها في النص السابق لهذا. وقد أشرنا آنفاً لوجود نقوش، تؤكد تقارب رسم اللغتين الجنوبية والشمالية العربية لاسيما المتأخرة منها[٢]. فليس من دليل على ما ذكره من نقوش في العراق والشام بلغة المنتصر[٣]. قال في معرض الخلط الذي طرحه وهو ينظر للشك في كل مقومات وجود الشعر العربي قبل الإسلام ((.. لكن من الذي يستطيع أن يثبت لنا الآن أن هذه الهجرة حق لاشك فيه ؛ فهي من أحاديث القصاص إلى أن تقوم عليها الأدلة العلمية. نعم ذكر القرآن سيل العرم ، واثبت البحث الحديث أن قد كان سيل العرم وذكر القرآن أن هذا السيل قد تمزقت له سبأ كل ممزق ، ولم يزد القرآن على هذا ، فلم يحدد تاريخ سيل العرم، ولم يقل كيف مزقت سبأ كل ممزق ، ولم يسم لنا القبائل السبئية التي مزقت، ولم يبين لنا المواطن التي هاجرت إليها، ولم تستكشف بعد نصوص تسمي هذه القبائل أو تدل على هذه المواطن))[٤]. ومرد هذا الشك عنده هو المقياس السياسي الذي جعله أحد دعائم منهجه في الدراسة نقلاً عن أهداف بعض المستشرقين، ودليل ذلك قوله ((.. أن هجرة هذه القبائل بعينها إلى هذه المواطن بعينها تكلف كان بعد الإسلام، واستغل فيه القصاص هذه النصوص القرآنية استغلالا لأسباب سياسية يعرفها أقل الناس إلماماً بالصلة بين القحطانية والمضرية بعد ظهور الإسلام))[٥]. وهو في خلطه هذا وقع في مناقضة أقواله، إذ اشترط أولاً دراسة القرآن الكريم بوصفه أثراً أدبياً، وفي النص السابق ، أراد له أن يكون كتاباً تاريخياً موثقا أحداث وردت بشكل عبر ومواعظ لأيام أمم بائدة، في حين لم ينكر ذكر القرآن لعاد وثمود، ولم يطلب تحديداً زمانياً لوجودهم وهلاكهم[٦] وأفاد طه

---

[١] م.ن ١٠١. وفي هذه المرحلة تطور فكر طه حسين ومع ذلك ظلت نظرته للعالم العربي تقيس الأحوال السياسية والاجتماعية الحالية على الأحوال الماضية أيام تدوين الشعر الجاهلي من دون وجود مظاهر للتشابه. فضلاً عن المعنى الغائم للفظي مصنوع ومتكلف في آرائه ونقده.

[٢] كان المستشرقون الذين اقتبس طه حسني آراءهم أكثر منطقية في هذا الأمر إذ افترض مارجليوث عدم وجود وثيقة مكتوبة لهذا الشعر والرواية الشفهية المنفصلة زمنياً عن وقت إنشائه مقتلاً للأخذ به. دراسات المستشرقين ١١٧-١٢٩.

[٣] أنظر تاريخ الأدب العرب م١/٧٨-٨١ والنقوش التي أوردها بتسلسلها الزمني ولغاتها وتواريخها بأسماء أمراء قحطانيين مكتوبة بالآرامية والسريانية.

[٤] في الأدب الجاهلي ١١٥. وكان بلاشير قد أشار لهذه الهجرة السبئية والشك فيها ثم جزم بانتقال قبائل الجنوب للشمال م١/٢٨-٣٠.

[٥] الأدب ، الجاهلي ، ١١٥.

[٦] اقتبس طه حسين قياس عمر الشعر الجاهلي ووجوده من نظرية مرجليوث أنظر دراسات المستشرقين مقالة ٨٧-١٢٩.

من الحديث المشهور " نزل القرآن على سبعة أحرف" واتخذه دليلاً على وجود لغات سبع عند العرب غير القراءات المشهورة في القرآن[١] مستعيناً بتفسير الطبري للحديث ، وحاجج نفسه في مقدرة عروض الخليل أن تستقيم له ((أوزان الشعر وبحوره وقوافيه كما دونها الخليل لقبائل العرب كلها على ما كان بينها من تباين اللغات واختلاف اللهجات ، وإذا لم يكن نظم القرآن، وهو ليس شعراً ولا مقيداً بما يتقيد به الشعر، قد استطاع أن يستقيم في الأداء لهذه القبائل، فكيف استطاع الشعر، وهو مقيد بما تعلم من القيود، أن يستقيم لها؟ وكيف لم تحدث هذه اللهجات المتباينة آثارها في وزن الشعر وتقطيعه الموسيقي، أي كيف لم توجد صلة واضحة بين هذه الاختلافات في اللهجة، وبين الأوزان الشعرية التي كانت تصطنعها القبائل؟))[٢] ونحن نقبل منطق الشك ولا أقول نظرية الشك وهذه الآراء، لو كانت من وحي استقرائه للنصوص العربية (الأشعار الجاهلية) ولكنها من وحي كتاب الفرت في فصل معنون ملاحظات[٣] عن صحة القصائد العربية القديمة ((من المعلوم أن كل الدراسات اللغوية انطلقت من القرآن ومن حديث (النبي) محمد، الأول يحتوي على قواعد الإيمان، والثاني يتعلق بالحياة المدنية... بل الأمر الرئيسي هو أن القرآن والحديث كانا بلهجة قريش، وهي لهجة لم يكن يفهمها غير القريشيين إلا نصف فهم وفي وطن النبي لم يكن ثم حاجة إلى تفسير، أما خارج وطنه – وهناك القسم الأكبر من المؤمنين – شعر الناس بالحاجة إلى هذا التفسير...، والمادة الأساسية التي عُنيا بها واشتغلا فيها كانت هي أشعار العرب في العصر الجاهلي. والواقع أنه حين كان يريد العلماء أن يشرحوا شكل أو ترتيب أو معنى أو استعمال لفظ من الألفاظ، لم تكن لديهم وسيلة للاستشهاد والتدليل - بسبب عدم وجود أدب منثور – غير طرائق القول المنقولة. كما تتجلى في الأمثال، وخصوصاً في الشعر الجاهلي، الذي كان قادراً بفضل وزنه الأكيد على تحديد أشكال الألفاظ في مداها. أما أنهم اقتصروا، قدر المستطاع، على أقدم عصر ، في وسعنا بالأحرى أن نبين أن القرن الأول (الإسلام) غني بالشعراء الذين اقتفوا آثار السابقين، وأنتجوا أعمالاً أكبر حجماً وعدداً وذات أهمية رفيعة. إنما السبب يقوم بالأحرى في كون الثروة اللغوية ، كما حفظت في الأمثال وفي شعر العصر القديم، سليمة وصافية، لم تزيفها تأثيرات أجنبية، ولم تخل بها الكلمات والأفكار التي أتى بها العصر الجديد وهذه النظرة من المؤكد أنها لم تكن صحيحة كل الصحة))[٤]. وهو عرض منطقي يعوزه احكام الأدلة، تلقفه مرجليوت فزاد عليه، ربط القرآن بوجود شعراء قبل (بزوغ الإسلام) ووصف القرآن للشعراء، ونفي الرسول تهمة الشاعر عنه في آيات الوحي، وربط آيات الوحي بالوزن الشعري مع بعض الغمز في مقصود (الشعر) في القرآن إن كان بالمعنى نفسه في الأدب اللاحق على القرآن، إلى غيرها من النظريات حول أسباب نحل الشعر الجاهلي، حتى أنه

---

[١] في الأدب الجاهلي ١٢٠-١٣١.

[٢] م.ن ١٣٠، أنظر هذه الآراء لمارجليوث دراسات المستشرقين ١٢٦-١٢٧.

[٣] نشرت هذه المقالة في مجلة (الجمعية الآسيوية الملكية) ١٩٢٥ بحسب مترجم دراسات المستشرقين ٨٧ بدوي طبانة أي سابقة لكتاب طه حسين ١٩٢٦م واعتمد مارجليوث فيها أصلاً على جهود الفرت في صحة القصائد العربية ١٨٧٢م.

[٤] دراسات المستشرقين مقال القرن ٤٣-٤٤.

يستخدم عبارات محددة في الدلائل التي ساقها هي (خط أول للبينة، خط ثاني للبينة، خط ثالث للبينة) وكل ما فعله د. طه أن قال الدليل الأول... الخ وهذه روح سرقة، وليست روح العلمية في البحث، بل قد يكون طه اطلع على معظم مقالات مارجليوث بهذا الصدد، إذ نجد في دراسات المستشرقين رأياً لمارجليوت نقله في مسألة صحة الشعر الجاهلي لبروينلش في دريفسفلد قال ((والمثل الثاني يتعلق بنظرية الخليل بن أحمد في أوزان الشعر واستمدادها من مادة شعر البدو. في هذا الأمر يقول مرجوليوت. ولما قدم الخليل بن احمد المتوفى سنة ١٧٠هـ نظام العروض الذي صرح بأنه استمده من القبائل العربية، فإن أحد معاصريه ألف كتاباً رام أن يثبت فيه أن هذا النظام كله وهم، لكننا إذا رجعنا إلى الموضع الذي ورد فيه هذا الخبر (ياقوت : أرشاد الأريب ج٢/٣٦٦) فاننا نجد أن هذا النقض على الخليل لا ينظر إليه على انه نقض صحيح، وعلى الأقل ياقوت ومصدره غير المباشر ابن درستويه المتوفى سنة ٣٤٧هـ ينكرونه، كما يدل على ذلك قوله : كما زعم وقوله : وكان كذاباً. وهكذا لم يقل شيء يذكر ضد صحة استمداد الخليل لنظام العروض من مادة شعر البدو. لهذا ينبغي علينا ألا نستسلم للشك المفرط فيما يتعلق بالمادة الشعرية التي رواها اللغويون. ولا للإفراط في الثقة العمياء فيما يتعلق بقدحهم بعضهم في بعض))[١]. فإذا فرضنا على سبيل التسامح أن الفكرة هي مجرد نتائج بحثية توصل إليها الرجلين طه ومارجليوث ومن بعده جريفسفلد فإننا لا نستطيع الإغضاء عن إنكار طه حسين للاقتباس عن علماء العربية الذين تناولوا بالبحث هذه القضايا وأوردوا آراءهم فيها وقد أنكروا هو الباحث العربي جهودهم ووجودهم على أرض البحث إنكاراً تاماً وفي هذا إنكار لهويته العربية، بإنكار كل أدب (نثر أو شعر) قبل نزول القرآن، فقد أثار تساؤلا من القارئ أو المعترض أن اختلاف اللهجات كان بعد نزول القرآن، وأن القبائل العربية نظمت شعراً بعد الإسلام لم يظهر فيه اختلاف اللهجات ولكنه نسي مسألة تدوين القرآن المتقدمة كثيرا على تدوين الشعر، فمن الثابت إن القرآن مدون منذ عهد الرسول (ρ) متلقي الوحي، وان توحيد اللغة أو الحرف الذي كتب به التنزيل على عهد عثمان ، انما هو نقل عن نسخة كتبت في هد الرسول ورد هذا في اكثر من مصدر واذا ما أردنا مباراة المستشرقين فإن التدوين أكثر خبرة من البحث المتأتي فهذا شبرنجر يقول: "وعن ابن جريج: قال: عبد الله بن عمر: يا رسول الله إنا نسمع منك الحديث، أفنكتبه؟ قال: نعم! قلت: والرضا (في الرضا) والسخط؟ قال: نعم! فإني لا أقول فيها إلا حقاً.

قال معاوية بن مرة (قرة): من لم يكتب لا يعد علمه علماً. وقال الله تعالى: علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى. سورة طه آية ٥٢ خبراً عن موسى"[٢]. وهو تناول موضوعي فيه شيء غير قليل من الأمانة العلمية في النقل، نفتقدها عند كثير من باحثينا العرب، أما لأنهم اختاروا نقل آراء بعض المستشرفين الانتقائية، أو لتجاهلهم كتب التراث العربي وما فيها من آراء علمية دقيقة امتاز بها كثير من علمائنا العرب القدماء، فهذا د.عبد الحميد الشلقاني يقول: "كان الحديث يروى بالمشافهة إلى عصر متأخر، بل نص على أن يكون كذلك،

---

[١] م. ن ، مقال في مسألة صحة الشعر الجاهلي جريفسفلد ١٣٦-١٣٧. ونشر المقال ١٩٢٦.

[٢] دراسات المستشرقين ، مقال الرواية والرواة عند العرب أوجست أشبر نجر ٢٥٦. ويعود تاريخ نشره إلى ١٨٥٦.

وتناهوا عن كتابته خشية أن يخلط بعضه بالقرآن، ويروى عن أبي سعيد الخدري أن النبي (ρ) قال : لا تكتبوا عني شيئاً إلا القرآن، ومن كتب عني شيئاً غير القرآن فليمحه))[١]. وهذا نص متناقض مع الذي قبله، مما لم يغب عن إشارة تضارب الأحاديث في الكتابة لحديث رسول الله (ρ) نقلاً عنه، ولكن النص يدعونا للتساؤل! هل أن كتابة الحديث لم تنف الاختلاف في رواية الأحاديث والتزيد عليها؟ في حين يوضح الكيفية التي كتب بها المصحف الشريف على لغة قريش، ومحي ما دونه من المصاحف المكتوبة بحروف أخرى ان صح زعم د. طه من وجودها مكتوبة، ومع ذلك فان السؤال هو متى دون الشعر الجاهلي لقبائل العرب ؛ سواء الذي قيل قبل الإسلام أو الذي قبل بعده بقليل مثل أشعار حسان ولبيد وكعب وغيرهم؟. وكم من الوقت بين نطق الشعر من فم قائله ووصوله إلى مرحلة التدوين في القرن الثالث الهجري أو حتى منتصف الثاني؟ فلابد اذن لهذا الشعر من المرور بعملية منهجية توحيد اللغة التي كتب بها، والأخبار أكثر من أن تحصى في هذا الاتجاه[٢] فمن طبيعة التطور البحثي والتدويني أن وجد طه حسين ومن قبله علماء العربية القدماء أن الشعر الجاهلي الإسلامي حين دون أو وصل مرحلة التدوين في العصر العباسي الأول على الرغم من تدوين كثير منه قبلها سواء في العهدين (صدر الإسلام والأموي) – قد خضع لعملية التقيد بلغة قريش، أو لغة القرآن وسبب ذلك كما اعترف طه نفسه ((.. إن الإسلام قد فرض على العرب جميعاً لغة عامة واحدة هي لغة قريش))[٣]. ومن منهج طه – المعتمد والمؤسس على دراسات المستشرقين – سوق أدلة عقلية على نظريته الافتراضية[٤] ووظف العاملين (البيئي والسياسي) وهما شرطي دراسته، فجعل تهافت أحدهما أمام القبول العقلي لديه، مدخلاً لسيادة العامل السياسي أو المقياس على حد تعبيره قال : ((.. ولكن هذه اللغة قد كانت تفهم في غير قريش من قبائل الحجاز ونجد، ومن هذه القبائل المصري كقيس وتميم ومنها اليمني كخزاعة والأوس والخزرج، بل منها قبائل لم تكن عربية بوجه من الوجوه وهي هذه اليهودية التي كانت تستعمر شمال الحجاز ولكنك تعرف رأينا في النسب وفي انتماء هذه القبائل إلى اليمن أو إلى مضر. ومع هذا فقد قلنا إن لغة قريش سادت قبيل الإسلام. ونحن إذا فكرنا عرفنا أن سيادة اللغات إنما تتصل عادة بالسيادة السياسية والاقتصادية))[٥]. وتقسيم عنده كالآتي :

---

[١] الإعراب الرواة د. عبد الحميد الشلقاني ط١٣٩١/٢هـ_١٩٨٢م طرابلس – الجماهيرية الليبية ٨٥.

[٢] ينظر دراسات المستشرقين مقالات (من تاريخ ونقد الشعر العربي القديم تيودور نيلدكه ١٧-٤٠، ملاحظات عن صحة القصائد العربية القديمة هـ.ألفرت ٤١-٤٨، نشأة الشعر العربي ديفيد صمويل مرجليوث ١٣٠-١٤٢، في مسالة صحة الشعر الجاهلي في جريفسفلد ١٣٠-١٣٥، الرواية والرواة عند العرب أوجست أشبر نجر ٢٤٩-٢٧١. وأنظر الأخبار التي أوردها د. عبد الحميد الشلقاني في الإعراب الرواة ٧٤-٧٩.

[٣] في الأدب الجاهلي ١٣١.

[٤] في الادب الجاهلي ١٣٤ أنظر الأدلة التي ساقها لدعم نظريته في وجود لغتين عربيتين جنوبية وشمالية.

[٥] في الأدب الجاهلي ١٣٤/١٣٥، وهي نظرية تداولها من قبله رواة العرب الأصمي وأبو عبيدة، فضلاً عن ابن سلام، ونجدها مقتبسة منهم ومن إشارات طه حسين – وعند بلاشير ، م٢٤/١ من غير إشارة لمصدر الاقتباس.

أولاً : بيئة كندية في نجد ((ولكن هذه البيئة كانت يمينية إن صح ما زعم الرواة والمؤرخون))[١] زال سلطانها قبل أن تفرض سلطاناً سياسياً واقتصادياً ودينياً على شمال البلاد العربية.

ثانياً : بيئة قرشية مكية ((كان لها سلطان سياسي حقيقي، ولكنه قوي في مكة وما حولها))[٢] وسلطانها متأت من سيادة سياسية واقتصادية بفعل حج مكة من أهل الحجاز وغيرهم من عرب الشمال، وهم أهل بيئة ((اخلق بمن تجتمع له هذه السلطات أن يفرض لغته على من حوله من أهل البادية))[٣] وهو ما كان في واقع أمر قريش ولغتها وإلا فكيف فهم العرب لغة التنزيل الكريم القرآن، وقد غاب هذا الأمر عن طه حسين أو تغافله، لأنه أراد لي عنق الحقائق العلمية والتاريخية بفرض نظرية شكه المتهافتة عليها، فلغة القرآن لم تخل من لغات العرب قال السيوطي ((قال أبو محمد يحيى بن المبارك اليزيدي في أول نوادره :

أهل الحجاز بَرَأت من المرض وتميم بَرِئت. أهل الحجاز أنا منك براء وسائر العرب أنا منك برئ، واللغتان في القرآن))[٤] والأمثلة على هذه اللغات كثيرة هي لغات العرب لاقراءات كما أدعى طه حسين في محاولة لإيهام القارئ، وفيما جمع علماؤنا العرب ما بقي يفي بهذا الغرض، وينقض كل ما جاء به هو ومن قبله المستشرقون وأما البيئة الثالثة عنده : الطائف ((كان لها شيء من السلطان الاقتصادي ولكنها لم تكن تداني البيئة المكية))[٥].

رابعاً : بيئة شمال الحجاز، أي بيئة القبائل العربية اليهودية في يثرب وما حولها ((ولكنا نظن أن أحداً لا يفكر في أن يقول إن هذه اللغة العربية الفصحى كانت لغة هؤلاء الناس من اليهود أو من الأوس والخزرج فضلاً عن أن هذه البيئة على ثروتها وقوتها لم تكن تداني قريشاً فيما كان لها من سلطان))[٦]. وهذه التقسيمات البيئية المعتمدة كما أدعى طه حسين دعائم اقتصادية وسياسية، هي تقسيمات قريبة جداً من طبقات ابن سلام لاسيما شعراء القرى (مكة والمدينة) وشعراء اليهود. وساق ما يشبهها بلاشير في دراسته للشعر والأدب العربي، ولكنه قدم أولاً أثر البيئة مرتبطاً بالعامل السياسي في تقسيم بيئات الشعراء، وجعل هذا التصنيف للنصوص الشعرية منهجاً له، فكانت عنده التسمية بيئات النصوص الشعرية الثلاث : الأولى في (السماوة والتخوم الشامية التدمرية)

---

[١] م.ن ١٣٥.

[٢] م.ن ١٣٥.

[٣] م.ن ١٣٥. هي الفكرة نفسها التي طرحها مارجليوث في مقاله نشأة الشعر العربي عام ١٩٢٥ أنظر دراسات المستشرقين ١١٨-١١٩ وسبقه في طرحها المستشرق الفرت في صحة القصائد العربية القديمة ١٨٧٢ وسرق عباراته. وقبلهما نيلدكه ١٨٦٤.

[٤] المزهر في علوم اللغة وأنواعها السيوطي ش وت محمد أبو الفضل إبراهيم، محمد جاد المولي، علي محمد البجاوي صيدا بيروت ٢٠٠٩ ج٢ ٢١٠.

[٥] في الأدب الجاهلي ١٣٦.

[٦] المصدر نفسه ١٣٦.

وتضمنت عنده بقايا الشعر القديم عند البدو . والثانية في (منطقة الضفة اليمنى للفرات الأوسط) إقليم البحرين واليمامة. والثالثة (منطقة أواسط الجزيرة وتخوم الحجاز وشمالي اليمن) وأضاف لهذا التصنيف (التقسيم البيئي) ثلاثة أصناف أخرى للشعراء اللصوص والشواعر، معتمداً مقاييس علماء العرب القدماء في تراجم هؤلاء الشعراء جرياً على طبقات ابن سلام ومعجم الشعراء للمرزباني ؛ لاسيما في تبرير القلة الإنتاجية بمقدار ما وصل منها إلينا، ومع ذلك فقد ألزم نفسه بالأثر البيئي في النتاج الشعري وتقسيم أصحاب النتاج على وفق هذا المقياس فجاءت تراجم الشعراء على النحو الآتي عنده :-

أولاً : الشعر في بلاط اللخميين في الحيرة :- وهو ما لان شعره واستوعب ألفاظ الحضارة الفارسية ومظاهر بيئتها.

ثانياً : الشعر في تيماء ومنطقتها وجمع فيها ثلاثة تراجم لشعراء يهود[١] وترجمتين لعذريين (إسلاميين أمويين). ويلاحظ أن كل ما فعله هو تغيير تسمية القدماء من الشعراء اليهود إلى الشعر في تيماء، وخلط الجاهلي بالعذري في محاولة ظاهرية لدراسة تطور الشعر ووجوده في بيئة معينة، من دون وجود أوجه شبه في النتاج أو غيره..

ثالثاً : الشعر في الطائف ولم يوفق في هذه البيئة الا بترجمة أمية بن أبي الصلت[٢].

رابعاً : الشعر في مكة. في هذه البيئة ترجم لشعراء لم يثق الثقات من علماء العرب أن ما وصل من شعرهم غير منحول أو محمول عليه مثل شعر أبي طالب، علي بن أبي طالب، أبي سفيان بن حرب، وبلاشير من ملتزمي نظرية الشك في الشعر المروي مشافهة، والحذر في قبوله بدقة، وعلة ذلك أنه نقل هذا التقسيم عن ابن سلام في طبقاته[٣].

خامساً : الشعر في يثرب (المدينة) مركز الإسلام الأول :- وترجم في هذه البيئة لشعراء مخضرمين وإسلاميين. وأشار في تراجم بعضهم لأصل قبائلهم اليمنية (النجاشي) وألمح لمقطوعات محفوظة عنه، أدرك بحسه النقدي المستعار من صاحب الأغاني أنها ((ذات قيمة لما تضمنته من رواسب الروح الوثنية وعنفها))[٤] وتكمن أشارته في وقوفها على الضد من إنكار طه حسين لشعر الجاهلية لاسيما الذي قالوه في حربهم القرشية ضد رسول الله صلى الله عليه وسلم والإسلام، فضلاً عن تمثيله للروح الوثنية وعنفها.

سادساً : الشعراء الجوابون وجمع في هذه البيئة ان صحت تسميته ثلاثة شعراء من المخضرمين وآخر نصراني أدرك الإسلام، وهم (الأعشى ميمون وابن فسوة وأبو زيد حرملة بن المنذر

---

[١] أنظر تاريخ الأدب العربي م٢/١٣٠-١٣١.

[٢] م.ن م٢/١٣٣.

[٣] طبقات فحول الشعراء م١/٢٤٤- ٢٤٥ وما نقله في نص قصيدة أبي طالب المكتوبة في كتاب يوسف بن سعد منذ أكثر من ١٠٠ عام ثم رأيه في شعر قريش.

[٤] تاريخ الأدب العربي م٢/١٥٢. وأشار لولادة النجاشي قبل الإسلام (عصر الوثنية). وسبقه إلى ذلك لويس شيخو.

الحطيئة) فما الذي دعاه لهذه التقسيمات في تراجم الشعراء؟ دعاه لهذا كما أدعى مخالفة منهج بروكلمان في تاريخه، إذ عمد الأخير إلى تقسيم الأدب العربي إلى خمسة عصور ((أ. عصر ما قبل الإسلام ب. عصر النبي صلى الله عليه وسلم وصدر الإسلام إلى سقوط الأمويين سنة ٧٥٠ ج. عصر العباسيين حتى فتح بغداد على أيدي المغول سنة ١٢٥٨م. هـ. العصر العباسي اللاحق حتى حملة نابليون على مصر ١٧٩٨. و. عصر النهضة السورية اللبنانية المصرية منذ القرن التاسع عشر إلى أيامنا))[١] ووجه اعتراض بلاشير على هذا التقسيم يكاد يكون اعتراض طه حسين على (المقياس السياسي) الذي قدمنا أشارات منه في أول عرضنا لمقاييس طه حسين، وأضاف بلاشير إليها ((أن بروكلمان قد طبق.. على تاريخ الأدب التقسيمات القابلة للنقد في بعض نواحيها تلك التي اعتمد عليها المؤرخون دون أن يذكر في الوقت نفسه أن ليس ثمة تزامن بين الحوادث التاريخية والوقائع الأدبية. ففي الشعر مثلا لم تحدث رسالة محمد (ρ) انقطاعاً في مفاهيم الشعراء السابقين واللاحقين الذين جاءوا عقب الإسلام مباشرة))[٢]وهو رأي غير صائب؛ ولذا نجده خالف رأيه المتقدم، فقال ان تأسيس الخلافة الأموية في الشام (وهو حدث سياسي تاريخي) – زاد أهمية سورية والعراق في العالمي الإسلامي[٣]، فأوجدا ظروفاً جديدة واحدثا تطوراً في الأدب، وهي الإشكالية نفسها التي وقع فيها طه حسين من قبل في مخالفته بعض أقوال المستشرقين وأرائهم المستمدة من صاحب خزانة الأدب والأصفهاني قبله، ولكنه كان أكثر حيطة في عبارته بقوله ((فليس من المحقق مطلقاً أن حياة العرب السياسية أيام بني أمية كانت عزاً كلها... وليس من المحقق إذن أن رقيها قد استتبع رقي الحياة الأدبية، وإنما المعقول أن يكون اضطرابها وفسادها سبباً في اضطراب الحياة الأدبية وفسادها. ومع ذلك فقد كانت الحياة الأدبية راقية من غير شك أيام بني أمية))[٤]. وإذا ما عددنا سنوات قيام دولة الإسلام إلى قيام دولة بني أمية فهي لا تتجاوز نصف قرن (٤٢) سنة فهل هي مدة كافية لظهور حياة أدبية راقية إذا كان الأدب الجاهلي غير موجود أو إن وجد أصلاً على حد تعبيره وقد قدرت حياة هذا الأدب أو نشأته بـ ١٥٠-٢٠٠ سنة قبل ظهور الإسلام، وهل ظهرت حياة أدبية (شعرية ونثرية) راقية من دون تأثير القرآن، أو فجأة ولها معرفة بأوزان شعرية منتظمة مختلفة مقيسة على بحور عدها الخليل، فلم تتجاوز ستة عشر بحراً. وإن كان طه لم ينكر تأثير القرآن، ولكنه حصر تأثيره بقيام دراسات التفسير والقراءة والفقه على متنه – بل نحن نجده عمم المقياس السياسي في عبارته على العصر العباسي وضرب لرقي هذه الحياة

---

[١] م. ن ، م١/٨-٩.

[٢] م.ن م١/٩ وهي نظرية د. طه حسين المتقدمة في إنكاره لوجود شعر جاهلي، لكنه أطلق هذا الوصف على شعر جرير والفرزدق متأثراً بآراء المستشرقين جولد تسيهر ١٨٩٢، هذا المضار بان ملامح البداوة والجاهلية أظهر في نصوصها من النصوص الجاهلية. ولم يذكر كيف استدل على الجاهلية، إذ أنكر وجود شعر لها وكيف التقط هذه الملامح.

[٣] هذا الرأي طرحه طه حسين في مقالات عديدة كتبها بالفرنسية أنظر نظريته في من الشاطئ الآخر طه حسين حسين مقالة نهضة الشعر في العراق في القرن الثاني للهجرة ٧٩-٨٧.

[٤] في الأدب الجاهلي ٤٨-٤٩.

وانحطاطها أمثلة، وبين أوجه التناسب العكسي لهذا الرقي والانحطاط مع الحياة الأدبية وأحياناً تناسباً طردياً، ولهذا فقد جعله أحد العوامل (المقاييس) في دراسة الأدب وتاريخه، وعليه فان العامل البيئي أو الوسطي اتخذ مفهوماً آخر عند طه، واتخذ أولوية عند بلاشير وهو يسخره لدراسة الأدب العربي وتاريخه قال : ((هذه العناية بالوسط... لداعيين أولهما : حصر الظواهر المبعثرة، ولكنها معروفة في كتب التاريخ وعلم الأقوام، وثانيهما تركيز بعض النقاط الضرورية بغية إيجاد العناصر المفيدة في تفهم حركة أدبية قد تخدعنا بغرابتها... وإذا كان لنا أن نبغي مؤيد النظرية تأثير الوسط على الإشكال الأدبية فلن نجد أحسن من الرجوع للعرب. فليس الباحث بمجبر عندئذ، كما هي الحال في الآداب الأوربية، على قهر الوقائع أو الحط، من أثر عطاءات العباقرة والنوابغ في عالم الأدب))[1] ويبدو أنه يعني بالعرب هذا في هذا الموضع (البدو) وإن لم يصرح بذلك، وتقسيماته التي قدمها على وفق نظرية البيئة، لم توفق كل التوفيق في دراسة ظواهر الأدب العربي، لاسيما الشعر والترجمة لشعرائه، إذ لم يوفق في بيئة الطائف، إلا بأمية بن أبي الصلت والشاعر الفرد، كما قال لا يعد ظاهرة عنده أو تفرد، بل أن محاولته كتابة تاريخ الأدب العربي هي نقل لتراجم المرزباني في معجمه وابن سلام في بعض طبقاته، على الرغم من أدعائه القدرة على ((أن من الصواب تعيين أوائل كل مرحلة أدبية وأواخرها. ولذا عنينا بتطور المجتمع الإسلامي أكثر منه بالحوادث السياسية كما عنينا بإشعاعات المراكز العقلية وظهور التيارات الفكرية التي أوجدت أشكالا أدبية جديدة، أو فرضت تجديداً على الصيغ القديمة. وفي الجملة فان هذا الكتاب يتفق وكتاب المستشرق جيب في تاريخ الأدب العربي، فإليه يعود الفضل في هذا التقسيم الدوري))[2] وكل ما في تقديمه من صدق هو نقله عن جيب ما جاء في تاريخه. أما قدرته على تحديد أوائل كل مرحلة أدبية وأواخرها فلم يوفق فيه إطلاقاً، ولم يصدق قارئه لأنه نقل معظمها عن علماء العرب الأوائل ؛ وهي هنات ليست بيسيرة في منهجه، فعلى سبيل المثال درس النتاج الأدبي العربي قبل الإسلام وبعده إلى عام ١٠٧هـ/٧٢٥م، في حين كان تقسيم جيب من ٥٠٠م عصر البطولة قبل الإسلام ١٥١٧-١٨٠٠م وهو تقسيم فضفاض تضمن تفصيلات زمنية وأدبية عديدة اعتمدت الأحداث السياسية في المجتمعات العربية، أكثر من اعتمادها ومواكبتها الآثار البيئية، كما قرر بلاشير (أن الصحراء تحتفظ هي والبيئات العربية (إنسانها) ببعض التقاليد، والتمسك بالآثار زمناً طويلاً يصل إلى مئات السنين).

---

[1] تاريخ الأدب العربي م١/١١. هذه نظرية ظهرت في أوربا منذ القرن السابع عشر الشك في شعر هو ميروس وتطورت في القرن التاسع عشر على يد المحللين وعلى رأسهم أوجست ودلف (١٧٥٩-١٨٢٤) ومن بين من تأثر بها طه حسين بحكم ثقافته الغربية وأفضل ما كتب في إيضاح مفهوم هذه النظرية الغربية كتاب الشفاهية والكتابية. والتر ج. أونج ترجمة د. حسن البنا عز الدين مراجعة : د. محمد عصفور الكويت شعبان ١٤١٤هـ شباط ١٩٩٤م وطبقت أول ما طبقت على دراسة الكتاب المقدس بنسخه المتعددة واختلاف بعض الأقوال والأخبار فيه، مما يجلو لنا الصورة التي قامت عليها دراسة المستشرقين وطه حسين للقرآن والأدب العربي قبل الإسلام. وهي دراسات تستحق التفصيل في مضانها ببحث مستفيض.

[2] تاريخ الأدب العربي م١/١٠ وقد أورد في هامش الصفحة تقسيم جيب ويتألف من ١٥ دور وهو تقسيم تاريخي بحت.

وأما فيما يختص بتاريخ اللغة العربية وعلاقتها بالشعر الجاهلي، فلم يطل بلاشير الوقوف على تاريخ اللغة الجنوبية، وظهور اللغة الشمالية والخلاف بينهما ، كما فعل طه حسين، وإنما قال ((غير أن لكل موضوع مقتضياته، فان تكيف لهجة بدوية والحاجات الفكرية الناشئة عن توسع الإسلام، وتكامل طرق الخطوط الكتابية المستعملة في بلاد العرب، في القرن الخامس، مرتبطان بازدهار الأدب ذاته، فكما أنه مشروط بوجودهما، فهما من ناحية أخرى مشروطان بوجوده، حتى إذا تصدى الباحث لدراسة أحدى هذه القضايا أجبر على معالجة القضايا الأخرى، ان هذه الضرورة تفرض نفسها بالبداهة تبعاً للغموض الذي يكتنف نشوء الكتابة العربية واللهجات التي صدرت عنها اللغة الأدبية))[1] وهو اعتراف منه باعتقاده وجود الأدب الجاهلي أو الجاهلي الإسلامي (نتاج المخضرمين) مكتوباً، وسيادة اللغة العربية الشمالية في زمن النبي(ρ) وقبله عند قبائل الجنوب قال : ((فهل يعد هذا الانتشار اللغوي نتيجة لهجرة القبائل الآتية من أواسط شبه الجزيرة؟ قد يكون هذا جائزا إن توسع المجال العربي، حسب الاتجاه الذي نفهمه، سابق على ما يظن، للتاريخ الميلادي، وعلى كل حال فقد أصبح استعمال العربية زمن النبي محمد (ρ) أمراً شائعاً ان لم يكن عند جميع قبائل اليمن وحضر موت، فعلى الأقل عند القبائل الضاربة في تهامة أو شواطئ البحر الأحمر، وفي الداخل في المنطقة الواقعة بين نجران والجوف اليمني))[2] وعلى ما تقدم فقد عكس الفكرة عند طه، إذ قدم أولاً انتشار اللغة العربية (الشمالية) وسيادتها ثم ناقش فكرة هجرة قبائل قحطان أو اليمانية إلى شمال الجزيرة وأواسطها ؛ ولم تكن عبارته أقل شكا أو أكثر جدوى في إيصال القارئ، أو الباحث إلى نتيجة حاسمة في شكه أو مبرراته ودواعيه، لقوله ((.. ان هذا مما يسوغ تردد المؤرخ إزاء هذه الاستنتاجات التي توصل إليها المؤرخون المسلمون ونحن نعلم مقدار الشكوك التي تحوم حول نشوء الاتحادات الكبيرة بين القبائل أمثال قضاعة وخزاعة وتنوخ وخثعم))[3]. ومع كل هذا الشك والتردد نجده يقبل كثيراً من الأخبار والأساطير التي نسجها المؤرخون المسلمون، ويقبلها في رسم صورة للعربي (البدوي) بطبيعة الحال ووصف شخصيته وفرديته وعلاقته بوسطه (قبيلته)، قال في وصف العربي، وهو وصف من المؤكد أنه لم يستخلص ملامحه من القرآن الكريم - : ((فالعربي يتأرجح دوماً بين قطبين : فردية تدفعه إلى رفع ضغط وتثبيت الحقوق الدائمة "للأنا" تجاه الواجبات الجماعية، وتعلق من ناحية أخرى بجماعته بصورة عميقة وعفوية قد تصل إلى حد التضحية بالنفس. فالمجتمع العربي إذا يمثل.. فوضى يخفف من شدتها في كل درجة من درجات السلم الاجتماعية حكم الأقلية المتفاوت الأثر عند رؤساء الأسر والأفخاذ والقبائل... وما أكثر الصفات التي يجب أن تتوفر في السيد للقيام بدوره وحيازة الرضا العام وعلى اعتبار انه الأول بين أنداده وجب عليه أن يقيم وزناً للرأي العام، وليس في العالم القديم طائفة يؤثر فيها

---

[1] م.ن م١/١٤.

[2] تاريخ الأدب العربي م١/٢٨.

[3] م.ن م١/٣٠ ثم عاد فقرر أن هذه القضية بحاجة إلى دراسة تفصيلية على إلا تعتمد على الأنساب والأخبار الإسلامية إلا بمنتهى الحذر لأنها قائمة على الأساطير، وهو رأي اقتبسه من المستشرقين المتقدمين عليه.

الرأي الشعبي مثلما نجده في المجال العربي))[1]. وهي عبارات فضفاضة في وصف العربي لأنها خلت من التحديد الزمني، لاسيما وأنه قال طائفة في العالم القديم، وهو وصف لا يصح إطلاقه على العرب قاطبة الذين كان فيهم النصراني واليهودي والوثني والحنفي إلى غيرهم من الطوائف التي سماها في أجزاء كتابه الثلاثة[2] أما المعلومات التي قبلها بحذر، مما نقله عن العلماء والنسابين المسلمين كما ادعى، فواقع كتابه يقول أنه لم يجد بداً من اعتماد بعض الأخبار – التي عدها أساطير – في وصف السادة العرب ((وقد رزق عدد من السادة بحلمهم وأناتهم شهرة تجاوزت حدود قبائلهم، مثلما رزقها في القرن السابع أكثم بن صيفي، والأقرع بن حابس وهما شخصيتان شبه أسطورتين))[3]. ويبدو أن للبحث الاستشراقي مسلمات اعتمدها باحثوه جيلاً بعد آخر منها أن يسوق نظرة قديمة في آداب العرب والمسلمين لسوقها على مظاهر الحياة العربية، وهذا متأت من ارتباط الدراسة الاستشراقية بدراسة المجتمعات العربية الحديثة من تاريخها وتاريخ وجودها، وارتباط هذه الدراسات الوثيق بالأهداف السياسية الغربية ؛ ولهذا نجد كثيراً من آراء المستشرقين تظهر هنا وهناك تسحب البحث إلى تلك الأهداف، قال في وصف فردية العربي ((وكما أن طريقة المعيشة ذات الصلة الوثيقة بالوسط الجغرافي لم تتبدل في الواقع منذ ألفي عام في الجزيرة. فكذلك نفسية الفرد ذات الأهمية في التاريخ الأدبي تدل على ديمومة واضحة. وهذه الظاهرة مثبتة في عدة نوادر وحكم حفظها المؤلفون المسلمون في القرون الوسطى وهي ماثلة اليوم أمام أعيننا))[4]. ولم يسم أياً من مؤلفي المسلمين في القرون الوسطى وما قالوه، وفي وصف آخر، نجده يقول عن العربي (البدوي) بطبيعة الحال ليس غير ((ففي عالم يعد فيه فقدان الأمن حالة طبيعية، والغزو وسيلة للعيش، والثأر واجباً مقدساً، فرض على البدوي أن يكون محارباً، ولن يكون إلا هذا، وحتى ولو لم يرتفع فوق مستوى الراعي البسيط. فمن واجبه حماية أمواله، وعيون الماء ومواشيه كما يجب عليه حماية الحضريين وإجبارهم على الإخلاص له))[5].
ولا يخفى على باحث في تاريخ العرب والشعر العربي أن راعي المواشي أو الراعي البسيط لا يحارب، ولم تكن العرب تسمح للرعاة بالقتال، فكيف يخضع الحضريين ويجبرهم على الإخلاص له! إنه يتحدث بوحي الصورة التي رسمها أساتذته المستشرقون للعرب والعربي، وهكذا نجده يقع في مطبات هذه المسملات – التي لا تقبل النقض لديه – حين يصف العربي البدوي ((فالعربي بحكم تأسله، يحب الكلام وسماع المنطق الجيد، والبدو تبعاً لنوع معيشتهم مدعوون إلى تنمية ميلهم للفصاحة، فان لغته العربية أداة قوية، وغنية بالأصوات، التي تدفع الناس إلى التماس المؤثرات الإيقاعية والجمل القصيرة، أو على العكس إلى التماس الكلام الذي يزيد الإسهاب من

---

[1] م.ن : يم١/٣٧-٣٨.

[2] أنظر ما قاله في التيارات التوحيدية في القرن السادس للميلاد على سبيل المثال لا الحصر م١/٧٠-٧٧.

[3] م.ن م١/٣٨ وهي نظرة طه حسين إلى القصص المحيطة بالشعراء والخطباء، بل القصص عنده سبب من أسباب نحل الشعر أنظر في الأدب الجاهلي ١٨٦-٢٠١.

[4] تاريخ الأدب العربي م١/٣٩ وهو نقل أجوف لحديث مرجليوث في جغرافية القصائد الجاهلية مستدلاً بمعلقة عمرو. دراسات المستشرقين ١٢١.

[5] م.ن م١/٣٩.

قيمته، كما ان حياة الصحراء تساعد على نمو الموهبة الخطابية))[1]. وهو كما نرى يفرق بين العربي والبدوي ظاهرياً، إذ هما عنده شيء واحد قال ((وبما أن البدو الرحل كما سنرى هم ذوو الأثر الأساسي في الخلق الأدبي فمن الطبيعي إذا أن يعيره انتباها خاصاً))[2]. وهكذا وصف حياة (البدوي) العربي وأسماره، وفخره بشجاعته، وتعداد مناقبه العرقية.. الخ مما أطال الوقوف عليه، مع خلط بين مفهوم البدوي والعربي، وليخرج علينا أخيراً بوصف الأدب الشعبي ((وإلى جانب الموضوعات العادية يشغل السمر أقاصيص أخرى تؤلف بحكم نوعيتها مصادر التاريخ والأدب، فمنها ما له علاقة بنسب القبيلة أو علاقتها مع القبائل الأخرى، أو الغزو أو المعارك التي اشتهر فيها بعض المحاربين، أو الخسائر التي منيت بها القبيلة في غزواتها الفاشلة، أو المكاسب التي حصلت عليها فيختلط الصحيح بالمشكوك فيه، والتاريخ بالأسطورة، والحادثة الواقعية بالخيالية، حتى ليصل الاختلاف إلى درجة التناقض، فتنشب من جراء هذا التناقض المنازعات، وترسخ هذه الأحاديث في ذاكرات الأطفال الذين ينقلون في كهولتهم، هذا التراث المشترك إلى ذراريهم. فالسمر إذا يتمم على صعيد الأسرة، الاستعدادات الفردية أو الجماعية الموآتية جدا لنمو أدب شعبي هو في طريق الخلق الدائم"[3]. وهنا أيضاً نجده لا يستطيع الفكاك من الآراء الاستشراقية التي تعم مشاهداتها الحديثة للصحراء وأبنائها على دراسة الأدب العربي ونتاجه، فضلاً عن اعتماده المصادر نفسها التي اعتمدها من قبل طه حسين (الأغاني، خزانة الأدب وغيرها من دواوين الشعراء) وشكك في صدق كثير من أخباره وعد أخباره من أحاديث السمر التي وردت فيه، إلا أن طه كان أكثر عرضاً وتفصيلاً لآراء المستشرقين وأسباب شكهم وشكه، والفصل بين صورة إنسان الجاهلية وعقله عن صورة ناقلي الأخبار ومؤلفي كتب الأخبار في العصر العباسي قال : ((وفي الحق أن الأدب العربي لم يدرس في العصور الإسلامية الأولى لنفسه، وإنما درس من حيث هو وسيلة إلى تفسير القرآن وتأويله واستنباط الأحكام منه ومن الحديث وكان هذا كله أدنى إلى الجد وألصق به من هذا القصص الذي كان يمضي مع الخيال إذا أراد، ويتقرب من نفس الشعب ويمثل له أهواءه وشهواته ومثله العليا، فليس غريباً أن ينصرف عن القصص أصحاب الجد من المسلمين... والتعمق في درس حياة القصاص الذين كانوا يقصون في البصرة والكوفة ومكة والمدينة وغيرها من الأمصار، يظهرنا من غير شك على الصلات التي كانت بين هؤلاء القصاص وبين الأحزاب السياسية))[4]. وهو رأي اقتبسه طه من ابن الجوزي من دون الإشارة إليه قال: ((.. أنبانا أبو بكر بن أبي طاهر عن أبي محمد الجوهري عن أبي عمر بن حيوية قال حدثنا أبو أيوب الجلاب قال : حدثنا الحارث بن أبي أسامة قال : حدثنا محمد بن سعد قال : حدثنا عفان قال : حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت قال : أول من قص عبيد بن عمير على عهد عمر بن الخطاب. أخبرنا أبو منصور القزاز قال : أخبرنا أبو

---

[1] م.ن م١/٥٢ وهو رأي مخالف تماماً لما قدمه طه في فن الخطابة، إذ عدها فناً متطوراً على حياة البداوة وحتى عهد الملوك.

[2] م.ن م١/٥٢.

[3] تاريخ الأدب العربي م١/٥٣.

[4] في الأدب الجاهلي ١٨٨-١٩٠. وهي فكرة المستشرق هـ.ألفرت أنظر دراسات المستشرقين ٤٣ وما بعدها.

بكر الخطيب... عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر قال : لم يقص على عهد رسول الله، ولا أبي بكر ، ولا عمر ولكنه شيء أحدثوه بعد عثمان))[١]. وهو يتحدث في أول من قص وعدد من القصاص من أهل المدينة ومكة من كان سابقاً على قصاص البصرة والكوفة[٢]. وأول ما نشأ القصص للوعظ والتذكير والوعيد وبشروط[٣] ومما اقتبسه طه حسين وزاده في أسباب الشك بصحة الشعر الجاهلي في المصادر التي استمد منها هذا القصص ثروته وهي:-

أولاً : مصدر عربي وهو القرآن وما اتصل به من أخبار وروايات، وما تحدثت به العرب في أمصارها من أخبارها وأساطيرها وما روت من أشعار، وما تحدث به الرواة من سيرة النبي والخلفاء في غزواتهم وفتوحهم. ومعنى هذا أنه لم يحدد تاريخا بعينه لبدء هذا القصص، وإنما ارتأى أن يجعلها بعد استقرار العرب في الأمصار وإتمام غزواتهم وفتوحهم وهذا زمن متأخر، فالأمر عنده مقصود في تعمية نشأة القصص.

ثانياً: مصدر يهودي نصراني، وهو ما أخذه القصاص من أهل الكتاب من أخبار الأنبياء والأخبار والرهبان. [٤] وأضاف أحاديث اليهود والنصارى الذين اسلموا ودسوها مخلصين أو غير مخلصين على حد تعبيره.

ثالثا: مصدر فارسي استسقاه القصاص في العراق من الفرس وما اتصل بأخبارهم وأساطيرهم وأخبار الهند وأساطيرها. ولم يورد لنا أمثلة في تأثير هذا المصدر على نحل الشعر أو حتى في تفسير القران والحديث.

رابعاً: مصدر مختلط "هو نفسية العامة غير العربية من أهل العراق والجزيرة والشام من الأنباط والسريان ومن إليهم من هؤلاء الأخلاط الذين كانوا منبثين في هذه الأقطار، والذين لم تكن لهم سيادة ولا وجود سياسي ظاهر"[٥]. ولا حاجة بنا إلى إدراك مقصد طه حسين في ربط (المقياس السياسي) بالنتاج الأدبي وظواهره وتاريخه، وقد وفق إلى حد بعيد في تطويع الظواهر الأدبية والنتاج الأدبي، بل وحتى الشعبي منه لهذه النظرية، بسوق أدلة مقنعة إلى حد بعيد لغير المطلع على كتب التراث والأدب العربي، قال: "... واذن فقد كان القصاص أيام بني أميه وبني العباس في حاجة إلى مقادير لا حد لها من الشعر يزينون بها قصصهم ويدعمون بها مواقفهم المختلفة فيه. وهم قد وجد وامن هذا الشعر ما كانوا يشتهون وفوق ما كانوا يشتهون ولا أكاد اشك في أن هؤلاء القصاص لم يكونوا يستقلون بقصصهم ولا بما كانوا يحتاجون إليه من الشعر في هذا القصص، وإنما كانوا يستعينون بأفراد من الناس يجمعون لهم الأحاديث والأخبار ويلفقونها

---

[١] القصاص والمذكرين جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي القرشي ت أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول دار الكتب العلمية بيروت ، ط١/١٤٠٦هـ-١٩٨٦م ٢٠-٢١. وأشار في الصفحة نفسها بخبر مرفوع أن القصص كان حين كانت الفتنة.

[٢] القصاص والمذكرين ٣٨-٥٥.

[٣] م.ن ٢٥-٢٨ و ٣٤-٣٥ و ١١٠-١١٨ وهو من لطيف الأخبار نقله كثير من الباحثين عن ابن الجوزي من غير إشارة له.

[٤] هذه الفكرة سرقها عن ألفرت في صحة القصائد العربية أنظر دراسات المستشرقين ٤٤-٤٥.

[٥] في الأدب الجاهلي ١٩١.

وآخرين ينظمون لهم القصائد وينسقونها. ولدينا نص يبيح لنا أن نفرض هذا الفرض؛ فقد حدثنا ابن سلام أن ابن إسحاق كان يعتذر عما كان يروي من غثاء الشعر فيقول : لا علم بالشعر، وإنما أوتى به فأحمله. فقد كان هناك قوم إذن يأتون بالشعر وكان هو يحمله فمن هؤلاء القوم؟))[1]. والحق أن ابن إسحاق لو كان يلفق الأخبار لما احتاج إلى الاعتراف بغثاء الشعر وجهله به، وإنما هو إدراك منه لرداءة هذا الشعر الذي نقله عمن جاء له به، أو قد يكون سمعه على نحو جيد ونقله نقلاً رديئاً، فاعتذر عن ذلك. ومع ذلك فتوظيف طه حسين للنص توظيفاً جيداً لأنه جعل الرواة ملفقين والنظام منسقين، وعليه فالقصص مصدر من مصادر نحل الشعر، ومثال هذا سيرة ابن إسحاق وسيرة ابن هشام والشعر الذي روياه فيهما، وأضيف للجاهليين مرة وللمخضرمين أخرى[2] وله في هذا بعض الحق، وله كل الحق في حديثه عن اعتقاد القدماء أن أن العرب أمة شاعرة ((وأن كل عربي شاعر بطبعه وسليقته، يكفي أن يصرف همه إلى القول فإذا هو ينساق إليه انسياقاً))[3]. وهو رأي الجاحظ في بيانه، قلبه طه على وجوهه، وقدم رفض القدماء له بتمييز الزائف والمنحول من الصحيح في الشعر[4]. ومع اقتباسه آراء القدماء إلا انه عرض لنا الوهم الذي وقع فيه بعض هؤلاء العلماء في قبولهم المنحول من دون إخضاعه لمنطق الوقائع والأحداث مثل قبوله الشعر المنسوب لجذيمة الابرش أو المنسوب لا عصر بن سعد بن قيس عيلان وضرب لهذا مثلاً البيتين :-

((قالت عميرة ما لرأسك بعدما

نفد الزمان أتى بلون منكر

أعمير إن أباك شيب رأسه

كر الليالي واختلاف الأعصر

قال ابن سلام وغيره من العلماء والرواة : إن هذا الرجل انما سمى "أعصر" لهذا البيت الأخير.. وابن سلام نفسه يحدثنا أن معداً كان يعيش في العصر الذي كان يعيش فيه موسى بن عمران، أي قبل المسيح بقرون عدة أي قبل الإسلام بأكثر من عشرة قرون فإذا لاحظنا أن أعصر هذا هو بن سعد بن قيس عيلان بن اليس بن مضر بن نزار بن معد، رأينا انه إن عاش فقد عاش في زمن متقدم جداً.... ونحن لا نعرف اللغة العربية قبل الإسلام بثلاثة قرون أو أربعة قرون، ونحن نجد مشقة غير قليلة في فهم الشعر العربي الصحيح الذي قيل أيام النبي أو بعد النبي، ولا نجد شيئاً من العسر في فهم هذا الكلام الذي إن صح رأي ابن سلام فقد قيل قبل النبي بأكثر من عشرة قرون؟ أليس واضحاً جليا أن هذين البيتين إنما قيلا في الإسلام ليفسرا اسم هذا الرجل

---

[1] في الأدب الجاهلي ١٩١.

[2] في الأدب الجاهلي ، ١٩٢ وما قاله في الشعر المنسوب لحمزة وحسان بن ثابت وكعب بن مالك وغيرهم من من شعراء قريش وغيرها في الغزوات والمواقف والوقائع. مع ملاحظة اعتماده منطقه النقدي الشخصي في تمييز المنحول من هذا الشعر.

[3] م.ن ١٩١-١٩٢.

[4] م. ن ، ١٩٣-١٩٥ ومن هؤلاء ابن سلام الذي أنكر الشعر الذي نسبه ابن إسحاق لعاد وثمود وحمير وتبع وغيرهم وابن هشام الذي رفض الشعر الذي رواه ابن إسحاق بإنكاره نسبته لمن نسب إليه.

الذي هو في حقيقة الأمر من أشخاص الأساطير لا نعرف أوجد حقيقية الأمر أم لم يوجد؟))[١]. وهذا التشكيك نقل أوله طه حسين عن مرجليوث في مقالته التي ورد ذكرها آنفا[٢] والإجابة على ما أورده أيسر مما يظن الباحث ورد عن السيوطي في المزهر في ذكر من لقب ببيت شعر قاله ((قال ابن دريد في الوشاح من الشعراء من غلبت عليهم ألقابهم بشعرهم حتى صاروا لا يعرفون إلا بها. فمنهم منبه بن سعد بن قيس بن عيلان بن مضر، وهو أعصر ؛ وإنما سمي أعصر بقوله:

أعميـــــر إن أبـــــاك غيـــــر لونـــــه مـر الليلـي واخـتلاف الأعصـر))[٣] فلابـد

أن الوهم ورد عند طه حسين لأنه منبه وليس في النص من ذكر لمعد ومتى وجد وعاش على الرغم من تأخر السيوطي إلا أنه نقله عن ابن دريد، فهل وهم جميع هؤلاء العلماء ليصيب طه حسين وحده، ودليل ذلك أن السيوطي أورد في (أولية الشعر) ما نصه ((... ومن قدماء الشعراء أعصر بن سعد بن قيس عيلان بن مضر، وهو منبه أبو بأهلة وغني والصفاوه))[٤]. فلابد وأن يكون وقع سهواً من طه حسين هذا الاعتقاد، والا فإن نقاشه علمي ومنطقي في الحديث عن أولية اللغة ووجودها، ولكن هذا الأسلوب الذي اعتمده في عرض أقوال علماء العربية القدماء باجتزاء النص، أو عرض بعض من الأقوال المتضاربة التي ينقلها العالم أمانة منه قبل إبداء رأيه في ذلك، وهو أسلوب استشراقي اعتمده معظم المستشرقين، وكان أكثرهم اعتماداً على لي عنق الحقائق مارجليوث الذي اقتبس طه حسين معظم آرائه (في الشعر الجاهلي) كتابه[٥]. وعرض طه حسين للأمثال وقصصها وعد ذلك سببا من أسباب نحل الشعر لما رافق بعض قصصها من شعر[٦]. وزاد شعر المعمرين دليلاً آخر، على علاقة القصص بنحل الشعر وضرب مثلاً عليها كتاب (المعمرين) للسجستاني الذي عرض في ذكره شكه الصريح بما قبله العلماء الثقات في القرن الثالث الهجري[٧]. وهو شك جلي بجهد هؤلاء العلماء وفي علمية عقليتهم وتآليفهم التي شاعت بين الناس وتسببت كما اعتقد طه حسين بإشاعة هذا المنحول الكثير من الشعر ، ولكننا نجد عنده خلطا بين الرواة واللغويين، مما يدفعنا للاعتقاد بأنه عد الرواة والعلماء اللغويين من نقده الشعر ومدوني التاريخ رواة حين كتبوا ونقلوا هذه الأشعار قال : ((والرواة أشد انخداعا حين يتصل الأمر بالبادية اتصالاً شديداً، وذلك في هذه الأخبار التي

---

[١] في الأدب الجاهلي ١٩٦-١٩٧ وانظر ما ضربه لاستخدام الرواة والقصاص الشعر في تفسير الأمثال ١٩٧-١٩٨.

[٢] انظر دراسات المستشرقين مقالة مارجليوث ٨٧-١٢٩.

[٣] المزهر في علوم اللغة وأنواعها السيوطي م٣٢٨/٢.

[٤] م.ن م٣٥٩/٢.

[٥] انظر دراسات المستشرقين مقالة نشأة الشعر العربي وحديثه عن بدأ نظم الشعر العربي ٩٣-٩٤ ولكنه نسب الأخبار لصاحب الأغاني وشيخو.

[٦] وهذه الفكرة مستعارة أيضاً من ألفرت انظر دراسات المستشرقين ٤٤ وتكاد تكون الألفاظ نفسها مع تحوير بسيط وإصرار على الشك.

[٧] في الأدب الجاهلي ١٩٩-٢٠٠.

يسمونها أيام العرب أو أيام الناس فهم سمعوا بعض هذه الأخبار من الأعراب ثم رأوها تقص مفصلة مطولة، فقبلوا ما كان يروى منها على انه جد من الأمر، ورووه وفسروه وفسروا به الشعر، واستخلصوا منه تاريخ العرب مع أن الأمر فيه لا يتجاوز ما قدمناه))[١]. والحق أن هذا القول يدل على جهله أو تجاهله لنشأة دراسة الشعر الجاهلي وروايته قال السيوطي في المزهر : في معرفة طرق الأخذ والتحمل ((هي ستة : أحدها السماع من لفظ الشيخ أو العربي ؛ قال ابن فارس : تؤخذ اللغة اعتياداً كالصبي العربي يسمع أبويه وغيرهما ؛ فهو يأخذ اللغة عنهم على ممر الأوقات، وتؤخذ تلقنا من ملقن، وتؤخذ سماعا من الرواة الثقات ؛ وللمتحمل بهذه الطرق عند الأداء والرواية صيغ : أعلاها أن يقول أملى علي فلان، أو أمل على فلان))[٢]. وعدد هذه الطرق : (السماع، القراءة على الشيخ، السماع على الشيخ، الإجازة، المكاتبة، الوجادة)[٣]. وهذا قصور في استقصاء عمل العلماء السابقين في رواية الشعر وتدوينه واستقصائه، بل نجد عنده سرقة لنصوص القدماء، أو قلبها على غير وجهها المصيب مثل استخدام الشعر في تفسير الأمثال، والأمر عكس ذلك إذ انطلقت أبيات شعرية أمثالاً سارت في الناس قال محمد بن سلام الجمحي في أول طبقات الشعراء : ((وفي الشعر مصنوع مفتعل موضوع كثير لا خير فيه، ولا حجة في عربيته، ولا أدب يستفاد، ولا معنى يستخرج، ولا مثل يضرب، ولا مديح رائع، ولا هجاء مقذع، ولا فخر معجب، ولا نسيب مستطرف. وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب، لم يأخذوه عن أهل البادية، ولم يعرضوه على العلماء. وليس لأحد. إذا اجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شيء منه – أن يقبل من صحيفة، ولا يروى عن صحفي))[٤].وقول ابن سلام لايدع مجالاً للشك في علميته أو منهجه في رواية الموثوق من الشعر الجاهلي أو الإسلامي، مما ورد في طبقاته، ولكن اعتماد طه حسين عقلية الاستشراق في السطو على منهج علمائنا القدماء وادعاء بعدهم عن التدقيق والنظر البعيد في الجمع والتأليف وعن المنهجية هو الذي دفعه لهذه الإساءات لتراثنا العربي، ودليل هذا أن معظم الآراء التي كونها طه حسين والمستشرقون من قبله إنما هي في حقيقتها طرح قديم لعلماء اللغة والنحو، فما أسس عليه طه حسين طعنه من شك في وجود لغتين عربيتين القحطانية الجنوبية والشمالية، هو في حقيقته تنويه أبي عمرو بن العلاء على ذلك قال : ((العرب كلها ولد إسماعيل إلا حمير وبقايا جرهم، ونحن لا نجد لأولية العرب المعروفين شعراً ؛ فكيف بعاد وثمود؟ ولم يرو عربي قط ولا رواية للشعر بيتاً منها، مع ضعف أمره وقلة طلاوته. قال أبو عمرو بن العلاء : ما لسان حمير وأقاصي اليمن لساننا، ولا عربيتهم عربيتنا، فكيف بها على عهد عاد وثمود مع تداعيه ووهنه؟ فلو كان الشعر مثل ما وضع لابن إسحاق، ومثل ما يروي الصحفيون ما كانت إليه حاجة، ولا كان فيه دليل على علم. هذا كله كلام ابن سلام))[٥]. فما الذي زاده مارجليوث أو نيلدكه وان كان أكثرهم توسطاً واعتدالاً

---

[١] م. ن ٢٠٠.

[٢] المزهر م١/١٢٢.

[٣] م.ن م١/١٢٢-١٤١.

[٤] طبقات فحول الشعراء م١/٤.

[٥] المزهر م١/١٤٤.

واعتدالاً ومن بعدهم طه حسين في حقيقة اللغة العربية وعلاقتها بالشعر الجاهلي ونشأته، والحق أن هذه التوجهات في دراسة الأدب العربي وتاريخه هي عبارة عن اجتزاءات لنصوص القدماء وبترها ثم الادعاء بوجود فرضيات جديدة قائمة على القسم المقتطع من نصوصهم، فعلى سبيل المثال لا الحصر ورد في المزهر نص لأبي عمرو بن العلاء ((.. لما راجعت العرب في الإسلام رواية الشعر بعد أن اشتغلت عنه بالجهاد والغزو، واستقل بعض العشائر شعر شعرائهم، وما ذهب من ذكر وقائعهم، وكان قوم قلت وقائعهم وأشعارهم ؛ فأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار؟ فقالوا على السن شعرائهم. ثم كانت الرواية بعد فزادوا في الأشعار التي قيلت، وليس يشكل على أهل العلم زيادة ذلك، ولا ما وضعوا ولا ما وضع المولدون، وإنما عضل بهم أن يقول الرجل من أهل بادية من ولد الشعراء أو الرجل ليس من ولدهم، فيشكل ذلك بعض الأشكال))[1]. وقال نيلدكه في مقالة من مقالاته في تاريخ ونقد الشعر العربي القديم ((ومثلما حدث لنص القصائد كذلك حدث مراراً للروايات المتعلقة بنشأة وظروف نظمها التاريخية والوقائع التي دعت إليها أو تعلقت بها أو إشارات إليها... وربما حدث أحياناً أن يتسبب نقد باطل في نسبة قصيدة مجهولة المؤلف إلى شاعر معروف. وعلى هذا النحو يروى أن جماعة من علماء الكوفة برئاسة حماد الراوية اخذوا يتشاورون في أمر من عسى أن تنسب إليه قصيدة سمعوها من أعرابي منذ قليل. ومن الواضح أنهم لم يركنوا إلى مجرد الهوى والتحكم، لكن السؤال يقوم حول ما إذا كانت الأسباب التي استندوا إليها في نسبة القصيدة إلى طرفة بن العبد أسباباً مقنعة حقاً. وعلى وجه العموم كان يكتفى بان يكون الاحتمال في صالح اقل الشاعرين شهرة إذا نسبت القصيدة إلى شاعرين مختلفين، خصوصاً إذا كانا يحملان نفس الاسم، إذ الخلط يكون في هذه الحالة مفهوماً))[2]. وفعل مثل فعله مرجليوث في اقتباس أراء القدماء وادعاء الريادة في البحث عن أولية الشعر العربي وروايته ورواته. وكذلك فعل طه حسين سيراً على نهجهم وكان أكثرهم إشارة لمصادر الآراء المستشرق الفرت، وصاحب عقلية محايدة إلى حد ما في استقراء أقوال القدماء.

تأثير الدين في نحل الشعر وتحوله إلى عامل سياسي عند طه حسين:-

وبما ان العوامل الخمسة التي قررها طه حسين أسبابا في نحل الشعر متداخلة تدخلا لا يمكن فصله، فالدين عامل سياسي عنده دفع قريش لنحل الشعر، إما تأييداً لدعوة الرسول والتبشير به قبل مبعثه وإما لرفع بطن من بطون العرب التي لم يكن لها شعر قبل الإسلام[3]. وألا يتعدى ذلك إلى تظاهر "العواطف الدينية والعواطف السياسية على نحل الشعر. فقد أرادت الظروف أن تكون الخلافة والملك في قريش رهط النبي، وان يختلف حول هذا الملك، فيستقر حينا في بني أمية وينتقل منهم إلى بني هاشم رهط النبي الأدنين. ويشتد التنافس بين أولئك

---

[1] المزهو م١/١٤٤. وانظر اقتباس طه حسين للفكرة من غير إشارة لأبي عمرو (في الأدب الجاهلي) ٢١٨-٢١٩.

[2] دراسات المستشرقين مقالة من تاريخ ونقد الشعر العربي القديم ٣١-٣٢ ولم يشر لا للسيوطي ولا الاصفهاني عند اقتباسه الآراء والحادثة.

[3] في الأدب الجاهلي ١٦٧-١٧٠.

وهؤلاء ويتخذ أولئك وهؤلاء القصص وسيلة من وسائل الجهاد السياسي"[١]. وفي هذه الإشارات صدق غير قليل ولكن طه حسين بعيد كل البعد فيها عن السبق إلى إدراك هذا العامل في نحل الأبيات على القصائد أو على بعض الأبيات ورد عند السيوطي ما يأتي: ((..وقال محمد بن سلام زاد الناس في قصيدة أبي طالب التي فيها:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه

وطولت، رأيت في كتاب كتبه يوسف بن سعد صاحبنا منذ أكثر من مائة سنة : وقد علمت أن قد زاد الناس فيها بحيث لا يدري أين منتهاها. وقد سألني الأصمعي عنها فقلت : صحيحة : فقال : أتدري أين منتهاها ؟ قلت : لا))[٢]. وأورد عن المرزوقي وأبي عبيدة مثل هذا، وزاد ((وقال المبرد في الكامل : كان عموم سعيد بن العاصي بن أمية يذكرون أنه كان إذا اعتم لم يعتم قرشي إعظاماً له، وينشدون :

أبـــو أحيحـــة مـــن يعـــتم عمتـــه يضـــرب وإن كـــان ذا مـــال وذا عـــدد

قال : ويذكر الزبيريون أن هذا البيت باطل موضوع))[٣]. ولا يخفى على متبصر أن طه حسين لم يزد عن أن جسم الآراء القديمة وأضاف لها كلمة العواطف السياسية والدينية في حين كنى علماؤنا القدماء عنها لوضوح القصد، ولان هذا ادخل في التاريخ منه في تاريخ الأدب ودراسته. ولم يخف أطلاقاً على علماء اللغة والنحو مثل هذا الأمر مطلقاً، كما أدعى هو وغيره. ويحسب لطه حسين التقاطه بعض الإشارات اللطيفة، مثل ابتداء التدوين في عصر بني أمية لا في عصر بني العباس، لاسيما تدوين الشعر العربي[٤]. وهي أيضاً إشارات القدماء لجمع حماد للشعر، وسبقه لهذه الإشارات والتقاطها المستشرقون وقد أشار طه نفسه لآراء المستشرقين في هذا الصدد لاسيما فيما يتعلق بالعهد الأموي الذي أخذ نصيباً كبيراً جداً من تحليل البنية الفكرية والاجتماعية والتركيبة السياسية عنده جرياً على الأسلوب الاستشراقي في دراسة الأدب العربي وتاريخه[٥] على الرغم من مخالفته بعض آرائهم ومناقشته إياها، إلاّ انه استعان كثيراً بمنهجية الاستشراق في تناول الموضوعات ودراستها في تاريخ الأدب العربي ولاسيما الجاهلي منه. وبعيداً عن صدق النتائج التي توصل إليها طه حسين في الوصول إلى تمييز المنحول من الصحيح في الشعر العربي الجاهلي، أو حتى مصداقيته في جدة الآراء والنظريات التي طرحها في كتابه، إلا أنه نجح ووفق في تطبيق المنهج الذي رسمه في مقدمة كتابه على الشعر المضري، واستطاع تطويع البيئة الاجتماعية والسياسية والعقلية العربية قبل الإسلام وبعده، لاسيما وأنه عد عهد الرسول صلى الله عليه وسلم أو زمن ظهوره (جاهلياً) في الشعر والنثر العربي معتمداً على أقدم النصوص الشعرية والنثرية التي وصلت إلينا من ذلك العهد مكتوبة ؛ فضلاً عن وجود شعراء

---

[١] م.ن ١٧١.

[٢] المزهر م١/١٤٨.

[٣] م.ن م١/١٤٩ ووصل جهد العلماء القدماء في تمييز المنحول من الرجز أنظر م.ن م١/١٥٠.

[٤] هذا لرأي نجده عند المستشرق جب في كتابه المدخل في الادب العربي لا ندري ايهما اسبق اليه لان تاريخ صدور كتابه في العام نفسه سنة ١٩٢٦ وترجمه كاظم سعد الدين .

[٥] صرح طه ببعض دراسات الاستشراق السابقة عليه فضلاً عن نظريات الأساتذة المستشرقين نلينو ٢٨ وهوار في شعر أمية بن أبي الصلت ١٧٩-١٨٠.

مخضرمين أدركوا الجاهلية والإسلام فعدهم جاهليين[١] وهو أمر فيه كثير من الصواب، وعليه أمكنه تعليل فقدان كثير من أشعارهم الجاهلية، والذي قالوه بعد الإسلام، فوجد النحال طريقهم للتزيد على أشعارهم.

مقياس طه حسين في كشف الزائف من الصحيح من الإشعار[٢]:-

اقترح طه حسين في هذا الصدد استخدام المقياس المركب أو التكاملي في معرفة الزائف من الصحيح ووضع له مفهوما بقوله ((نحن لا نعتمد على اللفظ وحده، ولا نعتمد على المعنى وحده، ولا نعتمد على اللفظ والمعنى ليس غير، وإنما نعتمد على اللفظ والمعنى وعلى أشياء أخرى فنية وتاريخية، ومن مجموع هذه الأشياء كلها نستخلص لأنفسنا مقياساً يقرب إلينا صواب الرأي في هذا الشعر الجاهلي المصري))[٣]. وهذا كلام تنقصه الدقة العلمية التي توخاها في عمله، لأن كلمة أشياء أخرى مبهمة غير محددة حتى بقوله فنية وتاريخية فهاتان كلمتان واسعتا المفهوم والدلالة، وما قاله طه حسين ليس بجد يد لأن علماء العربية إنما استخدموا المنهج التكاملي في دراسة اللغة وألفاظها وتراكيبها مرة على وفق المعنى وأخرى على وفق المبنى ومرة على وفق فنية تركيبها مع أخواتها في السياق وأخرى بحسب ظروف وجودها أو معرفتها تاريخياً، فاستعار ذلك ليجريه على دراسة الشعر كله، فغير لفظ معرفة اللغة بمعرفة الشعر[٤]. وكان أكثر اعتمادهم على لغة القرآن والحديث ثم لغة الشعر. ونجد عند علماء اللغة إجابات شافية لكل اعتراضات طه حسين في إنكار الشعر اليمني واستحالة أن تكون لغتهم قرشية لتقدمهم الزماني، فقد مر قول أبي عمرو من عدم وجود شعراء لحمير أو غيرها كما أدعى طه حسين ومن قبله المستشرقين وكان طه حسين مقتنعا تمام الاقتناع بآراء المستشرقين في عدم وجود لفظ واحد أو تعبير أو ضمير من اللغة العربية القديمة (اليمنية) في مضان الشعر الجاهلي الذي وصل إلينا، فضلاً عن أسطورية حياة شعرائه[٥]. وكذب الرواة، والأخبار المنقولة حول هؤلاء الشعراء وتزيدهم وتزيدهم في أشعارهم، وهي أسباب للنحل تجد صداها الأخاذ في نفس أي قارئ غير مطلع ، ونقل بلاشير قصة أسطورية الشخصيات الشعرية وساقها على شعراء العصر الأموي مثل المجنون وجميل بن معمر أو وضاح اليمن[٦]. وإذا تجاوزنا مصطلح الاقتباس والتأثر في عمل بلاشير على كتابه تاريخ الأدب العربي، فإننا لا نستطيع القول فيما أورده في حياة الفرزدق وسطوه على أشعار غيره إلا اقتباساً عن طه ومن قبله برونيلش[٧] في جريفسفلد ومرجليوث. وما نقله من اعتقاد طه أن الأبيات المتعلقة بقصة دارة جلجل في معلقة امرئ القيس هي من وضع

---

[١] هذه الفكرة والاعتبارات أوردها المستشرق ألفرت في الفصل الأول من كتابه بعنوان ملاحظات عن صحة القصائد العربية القديمة، دراسات المستشرقين ٤٥.

[٢] أنظر في الأدب الجاهلي ٣٢٣-٣٣٨ وما قدمه في رفض بعض أنواع النقد القديم وتصوره للمقياس المركب.

[٣] م.ن ٣٣٤.

[٤] أنظر المزهر م١/١٥٠-٣٨٣ وهي من أرفع الدراسات مسندة لأصحابها في كتبهم أوردها السيوطي.

[٥] في الأدب الجاهلي ٢٢٦-٣٠٧.

[٦] أنظر تاريخ الأدب العربي م٣/٢٠١-٢٠٢على سبيل المثال لا الحصر وما قال في المجنون م٣/٢٨٣-٢٨٦.

[٧] أنظر دراسات المستشرقين في مسالة صحة الشعر الجاهلي ١٧٥-١٧٦.

الفرزدق لأنها وردت في أخباره وهي أقرب لروحه الشعري[١]. ونجد بلاشير يستعير بعض مفردات طه مثل قوله ((ولما أخفق الفرزدق في الحصول على مساندة مؤيد المضريين عمر بن هبيرة عمد إلى التماس حمايات أخر، فكانت، بادئ بدء، من الخليفة هشام بن عبد الملك الذي أشاد به الشاعر بعد عودته من الحج))[٢]. وهو رأي طه حسين في أثر السياسة وخلفاء بني أمية أمية في شعر العصر الأموي واعتمادهم إثارة ما أماته الإسلام من خصومات قبلية، وهي آراء وملاحظات علمائنا القدماء كما أشرنا اقتبسها طه حسين ونقلها هو وغيره من المستشرقين ونسبوها لأنفسهم، فضلاً عن فهم بعض النصوص القديمة على غير وجهتها مثل قول بلاشير ((.. وثمة نوادر طريفة راجت عن نزوع بارز عند الفرزدق إلى أن يدرج، ضمن أشعاره، كل بيت يعتقد أنه بجماله ونغمته، جدير بعبقريته وحدها، وكان ذو الرمة، والشمردل، وابن ميادة من ضحاياه المذعورين))[٣]. ومن العجيب أنه أخذ بهذه الأخبار مع شكه بكل ما يروى في حياة الشعراء من طرف وصلت حد الأساطير في بعضهم وأما الخبر المقصود فورد عند ابن سلام ((انا أبو خليفة، أنا ابن سلام قال، أخبرني أبو يحيى الضبي قال، قال ذو الرمة يوماً : لقد قلت أبياتاً إن لها لعروضا، وإن لها لمراد أو معنى بعيداً. قال الفرزدق وما قلت؟ قال قلت

أحين أعاذب بي تميم نساءها ـــ ـــ ـــ

فقال له الفرزدق : لا تعودن فيها، فأنا أحق بها منك ! قال : والله لا أعود فيها ولا أنشدها أبداً إلا لك فهي في قصيدة الفرزدق التي يقول فيها :

وكنا إذا القيس نب عتوده ضربناه فوق الانثيين على الكرد))[٤]

وهي ثلاثة أبيات، ولكن لو صح ذلك فهل كانت الشعراء التي هجاها الفرزدق لتسكت عن ذلك أو كان جرير خصمه الأول ليدع ذلك يمر وهو الذي غلب هشاماً على ذي الرمة بأبيات قالها[٥] هذا فضلاً عن رأي الفرزدق في شعره ((فمر الفرزدق بذي الرمة وهو ينشد :

وقفت على ربع لمية ناقتي فما زلت أبكي عنده وأخاطبه
وأسقيه، حتى كاد مما أبثه تكلمني أحجاره وملاعبه

فقال الفرزدق ألهاك التبكاء في الديار، والعبد يرجز بك في المقبرة :- يعني هشاماً))[٦]. هشاماً))[٦]. وعلى أية حال أن كان الفرزدق قد أخذ عن ذي الرمة أبياته الثلاثة فليس هذا بمستغرب في عرف العرب جاء في المزهر ((قال محمد بن سلام الجمحي في طبقات الشعراء: سألت يونس عن بيت رووه للزبرقان بن بدر وهو:

تعدو الذئاب على من لا كلاب له وتتقي مريض المستنفر الحامي

---

[١] أنظر تاريخ الأدب العربي م٣/٦٢-٦٣ وأنظر في الأدب الجاهلي ٢٥٩-٢٦٠.

[٢] تاريخ الأدب العربي م٣/٦٠.

[٣] م.ن م٣/٦٤ وأحال في هذه الأخبار إلى ابن سلام.

[٤] طبقات فحول الشعراء م٢/٥٥٤-٥٥٥.

[٥] أنظر م.ن م٢/٥٥٧-٥٥٩.

[٦] م.ن / ٥٥٦-٥٥٧.

فقال : هو للنابغة، أظن الزبرقان استزاده في شعره كالمثل حين جاء موضعه لا مجتلبا له. وقد تفعل العرب لا يريدون به السرقة... وقال غير واحد من الرجاز :

عند الصباح يحمد القوم السرى

إذا جاء موضعه جعلوه مكملاً. وقال أمرؤ ألقيس :-

وقوفــاً بهــا صــحبي علــي مطــيهم   يقولـــون لا تهلـــك أســـىً وتحمـــل

وقال طرفة بن العبد :-

وقوفــاً بهــا صــحبي علــي مطــيهم   يقولـــــون لا تهلـــــك وتجلـــــد))[١]

فالأمر يسير في تفسير نسبة بيت واحد لأكثر من شاعر، وتفسير تطابق المطالع وتقاربها عند الجاهليين وجد طريقه للبحث والتحليل في منهج القدماء، وللأسف غاب ذلك عن المحدثين عامدين ذلك أم لا، إنما هو قلة صبر وجلد في بحث الموضوع والاستزادة في قراءة كتب القدماء والتبحر في جهودهم النقدية للطيفة والمتقدمة حتى وقتنا الحالي، والابتعاد عن روح التشويه لهذا التراث الواسع المتعدد الوجوه والغر في توجهاته وروافده من مختلف العلوم. وثمة أمر في كتاب بلاشير يحيلنا إلى في الأدب الجاهلي لطه حسين هو استخدامه المصادر نفسها التي اتخذها طه مصدراً لبحثه مثل الأغاني، تاريخ بغداد، طبقات الشعراء، الشعر والشعراء، معجم الشعراء وغيرها، واستخدم المنهج نفسه في قبول رواية الإشعار والأخبار التي شكك في صحتها من الأغاني كما فعل طه حسين تماماً، وليس هذا يستغرب، فكل باحث لاحق يعتمد مصادر الباحث السابق عليه في طرحه لموضوع البحث، وكذلك فعل طه حسين في الاعتماد على مصادر المستشرقين السابقين له، بل ان العلماء القدماء أنفسهم اعتمدوا أخبار سابقيهم من الرواة واللغويين، ولكن اقتباس الباحث المنهج نفسه والآراء بذاتها عند المحدثين وتعميمها على شعراء العصر التالي للعصر الذي بحثه المتقدم، هو الذي أضفى هذه الانطباقية في الآراء والاشتراك في المنهج والعمومية في الآراء، إذ عمد طه حسين لاستعراض منهج سانت بوف ونين وبرونتيير في دراسة تاريخ الأدب والإفادة من المنهجين في تطبيق نظرية ديكارت على دراسته لتاريخ الأدب العربي والجاهلي منه على وجه الخصوص[٢] ونجد ذلك عند بلاشير ابن الثقافة الفرنسية والمناهج الحديثة، والتيارات النقدية الجديدة مع ملاحظة أن تطبيقه على تاريخ الأدب العربي فرض بشكل صارخ أسلوب علماء العرب القدماء في دراسة حياة ونتاج شعراء الجاهلية والإسلام، وخير دليل على ذلك اقتباسه التقسيم البيئي للشعراء عند ابن سلام مع اعتماده الانتقاء من اختيارات ابن سلام للشعراء، مثل شعراء القرى وشعراء يهود[٣] وكذلك نلحظ اقتباس بلاشير

---

(١) المزهر م١/١٥١.

(٢) أنظر في الأدب الجاهلي ٥٣-٥٦. والحق أنه منهج مرجليوث كما تقدم وقد نقل آراءه بشكل فاضح لايدع مجالاً للشك بان طه هو الناقل.

(٣) أنظر تاريخ الأدب العربي م١٧/٢ وأنظر رأي طه حسين في الأدب الجاهلي ٨٨ و ٢٥٩-٢٦٠. ونجد بلاشير يقتبس أثر سياسة في أمية في الشعر الأموي م٥٢/٣ و ٢٦٦ و ٢٢٨-٢٢٩ في ارتباط الشاعر بالسياسة مثل كثير وتصنيفه ورأيه في شعر إسماعيل بن يسار وهي آراء طه حسين التي اكتفى بالتلميح فيها ووجدت عند بلاشير تفصيلاً وتطبيقاً على أشعار هؤلاء وغيرهم.

رأي علماء العربية القدماء في الفرزدق، ورأي طه في شعره بوصفه صورة صارخة لحياة الجاهلية ووثيقة هامة في تاريخ الأدب العربي قال : ((إن أثر الفرزدق الشعري، أجمالاً، لا يقدر بثمن، في التاريخ الأدبي، فهو في واقع الحال، إلى جانب أثر جرير، شهادة موثوقة على ما كان عليه الفن الشعري عند العرب الرحل شرقي شبه جزيرة العرب في أواخر القرن الأول الهجري / السابع الميلادي وفي الربع الأول من العصر التالي. إن هذا الأثر يتبوأ مكانه في القمة، حتى في الشعر الذي سيلقى، بحكم اتصاله بالعراق، تطوراً ملحوظاً في المعنى والمبنى))[1]. ولو توسع في هذا الاتجاه، في التقاط مظاهر تطور صناعة الشعر من حيث البناء الفني والمعنى الموضوع له المبنى لاستطعنا أن نجد تمايزا في عمل بلاشير عما قدمه طه مقلداً المستشرقين في منهج دراسة الشعر الجاهلي وتاريخه، لاسيما وأنه كتب عمله بعد ثلاثة عقود من تاريخ كتابة طه حسين في الأدب الجاهلي وأكثر بكثير من هذا التاريخ بعد كتب ومقالات المستشرقين في الأدب الجاهلي واللغة العربية، وثمة تطور آخر لم يفطن طه أو بلاشير له في شعر هذا العصر إذ خلقت العصبية والنقائض والغناء عوامل ((.. تضافرت على خلق روح جديدة في النقد، وعلى تحليل صياغة الشعر ومعانيه ورجاله تحليلاً فيه عمق، وفيه نظر متنوع، وفيه اختلاف في الذوق والحكم فمن الأمور التي امتدحوها في الصياغة أن تكون اعاريض الشعر موسيقية ذات نغم محس ؛ فطن ذو الرمة إلى جمال تلك الخاصة في الشعر فامتدح أبياتاً له بان لها عروضاً ولها مراداً ولها معنى بعيداً. وقدم الكوفة، ودخل مسجدها فمر ببصره فرأى الكميت والطرماح فقصدهما، ثم جلس وقال للكميت :أسمعني شيئاً يا أبا المستهل، فأنشده قوله:

أبت هذه النفس إلا ادكاراً

حتى أتى على آخرها فقال : أحسنت يا أبا المستهل في ترقيص هذه القوافي وتعلم عقدها. والقصيدة من بحر المتقارب، ولهذا البحر نفحات راقصة مرحة من غير شك))[2]. إلى غيرها من نقد عمر بن أبي ربيعة تعدد أسماء الأماكن والقرى في شعر مالك بن أسماء، فالشاعر في صدر الإسلام ابن صنعة لا ابن طبع كما أدعى طه حسين، أو كما قال الأصمعي قبله. ولكن يحسب لطه أشارته لوجود مدارس شعرية نقلاً عن ابن سلام استمرت لما بعد مجيء الإسلام، ونقل بلاشير شعر بعض الشخصيات التي أنكر وجودها كما فعل وطه حين أنكر وجود شخصية امرئ القيس وشعرها ثم عاد فقبل بعض الأخبار في حياتها وأبياتاً من مطولته[3]. ((سمالك شوق بعد ما كان اقصراً منحول هذا الشعر الذي قاله امرؤ القيس حين دخل الحمام مع قيصر، والذي ننزه هذا الكتاب عن روايته.. وإذا لم يكن بد من التماس الأدلة الفنية على نحل هذا الشعر، فقد نحب أن نعرف كيف زار امرؤ القيس بلاد الروم وخالط قيصر حتى دخل معه الحمام وفتن ابنته، ورأى مظاهر الحضارة اليونانية في قسطنطينية ولم يظهر لذلك أثر ما في شعره : لم يصف القصر ولم يذكره، لم يصف كنيسة من كنائس قسطنطينية، ثم يكفي أن تقر أن

---

[1] تاريخ الأدب العربي م٣/٦٨-٦٩.

[2] تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري. طه أحمد إبراهيم ٣٩.

[3] أنظر في الأدب الجاهلي ٢٤٥-٢٥٢ وما قاله في معلقته وبعض شعره ٢٥٥-٢٦٣.

هذا الشعر لتحس فيه الضعف والاضطراب والجهل بالطريق إلى قسطنطينية))[1]. والنظر إلى مقدار التناقض في أول عبارته مع آخرها، فقد أصر على نحل هذا الشعر ثم إنكاره لأي أثر لهذه الأحداث في حياة امرئ في هذا الشعر، وهو الأمر ذاته الذي فعله بلاشير في شعر نصيب قال : ((لم يعرف تاريخ مولده في ودان، وهي واحة صغيرة بين مكة والمدينة. وكان نصيب من أصل وضيع، وكان على الأرجح، عبداً أسود،.. إن ما نعرفه من سيرته الشعرية مستخلص من المعطيات التي اختلطت فيها عناصر ذات قيمة تاريخية Historicite محتملة، وحكايات مصبوغة بالخيال المروى Romanesque...، ولعله سلك مسلك مدرسة جميل.. وثمة خبر مشكوك فيه قليلاً، يظهر نصيباً مجيداً للقراءة والكتابة، يفرض نفسه على الناس، بفصاحته وتخلصه إلى جيد الكلام وافتخر نصيب، مرات عديدة، في شعره بأصله ولونه، ولعله موقف شعوبي حلا للمقلدين التنبيه إليه))[2]. وهو أسلوب طه في قبول الأخبار والتشكيك في مناقشتها، فكيف يكون على الأرجح أسود أو قد افتخر بلونه مرات عديدة واستخلص سيرته التي شكك فيها من عناصر ذات قيمة تاريخية، ولنقل أنه الأسلوب النقدي الغربي في مناقشته لمعطيات الأخبار التاريخية الأدبية في كتب التراث العربي، ونقله الأخبار عن الأغاني ومعجم الأدباء يؤكد اقتباسه الإطار الذي عرض فيه طه حسين الأخبار وناقشها ولاسيما ما سماه بـ معطيات ذات قيمة تاريخية محتملة حكايات مصبوغة بالخيال المروى، وقوله خبر مشكوك فيه، ومع ذلك نجده أثبت هذه الأخبار في ترجمته للشاعر، واستخلص من الأشعار المنحولة عليه كما اعتقد طبيعة الحياة التي عاشها[3]. وان كان طه حسين لم يدخر آراءه في اتهام الرواة وعلماء اللغة بوضع الاشعار ونحلها على الشعراء، فان بلاشير استعان بهذه الآراء وعممها - كما فعل سابقوه من المستشرقين – على أصحاب المختارات قال : ((... ونتعرف أحيانا على أثر ركبته يدفنان رقيق الأمانة مثال ذلك المقطوعة التي أوردها أبو تمام في الحماسة ١٠٩/٢،... وهناك نص يثير شكوكنا بروحه "العذرية" المخلوطة بتقليد بدوي غامض))[4]. وهو أسلوب طه في تحليل النص الشعري وعرضه على لغة الشاعر في ديوانه أو آثاره – هذا المنهج اقتبسه طه عن المستشرق نيلدكه في دراسته لمعلقات طرفة والنابغة وغيره من المستشرقين – ولكن روح طه الحادة في هدم بناء هرمي قديم لطالما عد دعامة من دعامات لغتنا ، ووجهات نظره الهدامة جلية في كتاب بلاشير مع تخفيف لحدتها، فضلاً عن إفادته من منهج علماء العرب القدماء من غير الإشارة إليه، مثل إشارته لمعرفة نصيب الكتابة، وهي إشارة لغوي العرب لإقصاء الشاعر عن فصاحة البدوي وقد أوردة هذه الإشارات معتمداً على خبرة المتخصص في التقاط هذه الإشارات، من غير ذكر لجهد

---

[1] في الأدب الجاهلي ٢٥٤. جاء في دراسات المستشرقين مقالة نيلدكه ((... إلا أنه يولي أهمية كبرى لكون الكتابة في الفترة السابقة على ظهور النبي محمد كانت نادرة جداً، لأنه لا نزاع في أنه وجدت آنذاك سجلات مكتوبة لمعاهدات بل ولقصائد)) ٣٤.

[2] تاريخ الأدب العربي م٣/٢١١-٢١٢.

[3] م.ن م٣/٢١٣.

[4] م.ن م٣/٢١٤. هذا الرأي هو للمستشرق الفرت في ملاحظات عن صحة القصائد العربية القديمة) أنظر دراسات المستشرقين ٤٢.

القدماء في هذا المضمار، مما يعني أنه لم يكن سوى ناقلاً لآراء من تقدمه وليس مجدداً في مجال دراسة الشعر العربي القديم وتاريخه، ومما يلمح في كتاب طه حسين اقتباسه فكرة المدرسة الشعرية من ابن سلام وهو يتحدث عن أوس بن حجر ومدرسته التي كثر فيها التشبيه والمجاز والاستعارة.. الخ قال : ((.. أن صناعة الفن البياني الخالص وتعمده والإلحاح فيه ليست كما كنا نظن مظهراً من مظاهر الحياة الأدبية الجديدة أيام بني العباس، وليس مسلم بن الوليد هو مبتكرها أو منميها، كما كنا نظن. وليست هذه المدرسة البيانية في الشعر، هذه المدرسة التي تعنى بالفن للفن، عباسية النشأة أو عباسية النمو والنهضة، وإنما هي أقدم من ذلك وأبعد في تاريخ الشعر العربي أثراً نشأت في العصر الجاهلي، وأنشأها أوس ونماها زهير والحطيئة، وكان لها ممثلون في العصر الأموي منهم جميل وكثير، واتصلت سنتها إلى أيام بني العباس، فتناولها مسلم ثم أبو تمام وابن المعتز ثم المتنبي))[1].

وتمتع بلاشير بالقدرة نفسها فاستعار الأفكار وطبقها على العصور الأخرى، قال في شعر الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان ((.. وقد لجأ الوليد مثل الكثيرين من الشعراء الحجازيين، إلى صيغ أو رواسم مرتبطة بحياة الصحراء، وثمة، أخيراً، مقطوعات أكثر جدارة بالعناية في التاريخ الأدبي وهي تكشف عن فنان متحرر من الزخارف التقليدية، وقادر على التعبير عن "الأنا" في أشكال متجددة إنها على كل حال، قطع أو مقطوعات لا نستطيع النكران بأنها تنبيء عن تأثيرات عراقية، ونضرب مثالاً على ذلك الأبيات الآتية قال الوليد :-

خبروني أن سلمى خرجت يوم المصلى

فإذا طير مليح فوق غصن يتفلى... بيد أنه في مستوى

آخر ينفخ في هذا الشعر روحاً مجهولة، تلك الروح التي فرضت نفسها في العراق... إن مثول الوليد في هذه "اللحظة" من الشعر العربي يعني منعطفاً في الأفكار، ونهاية للثورة الحجازية وتأكيداً لما تميز به الشعراء الغزليون العراقيون))[2]. وفي نصه إشارة صريحة لعده الوليد رأس المدرسة الغزلية العراقية المجددة أو نواتها، مع إشارة لإتباعه النهج البدوي في معظم شعره إلا في بعض اللحظات كما أدعى، ونجد مثل هذا في حدثيه عن غزل ابن قيس الرقيات ((وتبدو الأداة الشعرية عند ابن قيس الرقيات زائغة، فليست البحور التي استعملها هي ذاتها التي عرفت برجحاتها عند شعراء زمنه، ففي الديوان قصائد من المنسرح والخفيف، أو بحور طويلة ولكنها موجزة كالكامل، ولعله ينبغي اعتبار هذه الظاهرة تأثيراً حجازياً، ويجدر ألاّ نبعد كوارث انتقال الرواية،.. إن مكان ابن قيس الرقيات بين معاصريه لأهم مما كان يشيعه أرباب المختارات الشعرية..، فان هذا الشاعر بتحرره من القسم الأكبر من الشعر الابلي يبدو أمامنا كمثل أصيل للاتجاهات المدنية فنرى من خلاله أنها لم تكن محصورة في إطار الحجاز بل أخذت تلامس

---

[1] في الأدب الجاهلي ٣٤٤. وأنظر رأي ابن سلام في الطبقة الثانية وشعرائها م١/٩٧-١٠٥ وكيف اقتبس طه الفكرة ووسعها وشعبها وأضاف فكرة الفنون البلاغية على فكرة القصائد الحولية، وسبقه إلى التقاط مقولة ابن سلام الفرت دراسات المستشرقين ٦٥-٦٦.

[2] تاريخ الأدب العربي م٣/٢٧١-٢٧٣.

مراكز عراقية. وترتسم ملامح صورة بشار خلف نصيب))[1]. وهو أسلوب طه في استقراء الظاهرة، إذ عد هؤلاء الشعراء على وفق أسلوب نظمهم صفاً متتالياً أو مدرسة غزلية ابن قيس الرقيات ثم نصيب الذي اتصل بكثير عزة فبشار، وتكاد تكون استمراراً للمدرسة الجاهلية. وليس هذا فحسب بل نجد طه حسين وبلاشير يسيران في خط واحد في النظر للنثر العربي أو الأثر القصصي، فطه أنكر وجود نثر للعرب لأنه ((لغة العقل ومظهر من مظاهر التفكير، تأثير الإرادة فيه أعظم من تأثيرها في الشعر، وتأثير الروية فيه أعظم من تأثيرها في الشعر أيضاً، فليس غريبا أن يتأخر ظهوره، وأن يقترن بظواهر أخرى طبيعية واجتماعية لا يحتاج إليها الشعر))[2] . وعليه فإن علماء العرب القدماء أخطأوا في تقرير وجود نثر للعرب، وعلى وفق نظريته في الشك بوجود شعر جاهلي أو موافق للغة عرب الجنوب فكذلك النثر ((الذي يضاف إليهم كالشعر قد روي بلغة قريش التي لم يكن لها بها علم، فيجب إلا يكون صحيحاً. والأمر في النثر أظهر منه في الشعر ؛ فإن لهؤلاء الناس لغة معروفة كتبوها وتركوا فيها نصوصاً منثورة نستطيع أن نقرأها وندرسها ونستخلص منها بعض القواعد الفنية للنثر... وإذن فكل ما يضاف إلى اليمنيين من نثر مرسل أو مسجوع أو خطابة في الجاهلية مرفوض لا قيمة له ولا حظ له من الصحة نحل بعد الإسلام نحلاً للأسباب التي قدمنا))[3]. وهذا كلام خارج على المنطق، إذ لا يمكن لباحث أو حتى عشرين باحثاً أن ينكروا وجود نثر عربي ويوافقهم العالم في ذلك، فقط لأنهم وضعوا نظرية متخيلة أرادوا لها أن تستقيم على وفق منهج ديكارت الفلسفي، ولكن أكثر صراحة في القول أن الفكرة للمستشرق مرجليوث الذي عد القرآن أول نص عربي نثري ((... والأساليب العربية، سواء منها النثر المسجوع والشعر، ذات شبه بأسلوب القرآن، وفي القرآن أجزاء لا يشكك في كونها نثراً مسجوعاً إلا المتشددون جداً من أهل السنة، وفي القرآن أمثلة على كثير من أوزان الشعر. فعميلة الانتقال من أسلوب القرآن إلى الأساليب المنتظمة ستبدو إذن متفقة مع قياس النظير، وإذا كان القرآن أول عمل في اللغة العربية يكشف عن فن أدبي، فإن دعواه إعجاز فصاحة ستكون أمراً يمكن أن يفهمه الناس بسهولة، ولن تكون مختلفة كثيراً عما يدعى للبعض أو يدعيه البعض ممن أدخلوا الشعر في اللغة لأول مرة. أما إن كان السامعون قد تعودوا من قبل على النثر المسجوع والشعر اللذين من النوع المنمق المنمى الذي يتجلى في الأعمال الأدبية الجاهلية المكتوبة بهذه الأساليب، فسيكون من الصعب إثبات صحة تلك الدعوى على الأقل))[4]. وهو كلام يرد بعضه بعضاً لأنه يفترض وجود الأثر الشعري ناضجاً فجأة مثل القرآن الكريم والقرآن ظاهرة غير بشرية، حتى وان عده المستشرقون أثراً أدبياً، وينقض ما قرره المستشرقون قبله (الفرت) مستعيناً بآراء العرب القدماء من أن نشأة الشعر ابتدأت بأبيات يقولها

---

[1] تاريخ الأدب العربي م٣/٢١٨-٢١٩ ونظرية عدم مطابقة البحور في نتاج الشاعر لما راج في عصره أو عند معاصريه مقتبسة هي الأخرى عن طه في حديثه عن امرئ ألقيس في الأدب الجاهلي ٢٥٧-٢٥٩ وأن كان طه قد اقتبسها من منهج البحث الاستشراقي.

[2] في الأدب الجاهلي ٤١٢. وأنظر ما أراده بمعنى لفظ النثر وتمييزه من أحاديث الناس ٤١٠-٤١١.

[3] م.ن ٤١٤.

[4] دراسات المستشرقين مقالة مرجليوث (نشأة الشعر العربي) ٩٩-١٠٠.

الرجل في حاجة أو مناسبة واستغرق بحسب الفرت قروناً حتى وصل إلى نضجه، بل قدر عمر الشعر الجاهلي بـ ١٥٠ سنة قبل الإسلام حتى وصل عصر تدوينه[١]. فضلاً عن إشارته لانتحال هذا الشعر بعد نزول القرآن لأنه عد القرآن أسلوباً غير منتظم بين الشعر والنثر، وهو ما تحاشاه طه حسين ولكنه تبنى النظرية بأكملها من غير هذه الإشارة الصريحة، ودليل ذلك أن مرجليوث قال ((ثم إن عملية التطور الأدبي تسير عادة وربما دائماً، من غير المنتظم إلى المنتظم. فالأدب اللاتيني يبدأ مما يسميه هو راس... كان بحر زحل الشعري خشناً غليظاً، ثم استخدمت البحور الشعرية اليونانية ولكن تكييفها مع اللغة اللاتينية كان في البداية قاسياً جداً))[٢]. ونجد هذه المقارنات مع أدب أمتنا في كتاب طه منثورة هنا وهناك، وكل ما فعله في هذه النظرية السقيمة الساذجة المتهافتة أنه جمع الأمثال وقصص المعمرين والقصص العربي وغيره مما دخل إلى لغتنا من تأثيرات الأمم المجاورة أو الأديان المتعايشة مع أبناء الجزيرة في إطار نحل الشعر القديم، وأنكر عليهم الخطابة ووجودها، وأنها فن من وجهة نظره استحدثه الرسول(ρ) ومن بعده الخلفاء لحاجة سياسية نظراً للتطور الاجتماعي[٣]. الذي أوجده الإسلام، وفي هذه الحال علينا أن نسأل أين يضع الخطابة وشروطها وتحت أي صنف من أصناف الأدب وقد سار على نظرية صاحبه مرجليوث في عد القرآن بين الشعر والنثر، مما يعني أن الخطابة بنضجها في خطب الرسول وخلفائه ظهرت على يدي الرسول (ρ) فناً راقياً ناضجاً مكتمل الملامح متجاوزة عملية التطور الأدبي التي تسير من غير المنتظم إلى المنتظم. ولذا نجد طه استثنى نثر مضر في الجاهلية من شكه[٤] لأسباب تجارية واقتصادية وأخرى تعلقت باتصالهم باليهود والنصارى ومجوس الفرس وما ترتب على ذلك من تثاقف حضاري، والمعرفة بأخبار الأولين وهي الأسباب نفسها التي قدمها في نشأة القصص العربي بعد نزول القرآن. ولكنه قدمها هنا دليلاً على معرفة المضريين الكتابة، مما يعني افتراضه معرفتهم التدوين وإلا فلماذا يتعلم من يعيش في الصحراء الكتابة فقط لإغراض تجارية واقتصادية، وكيف كان لهذه الأمة البدوية حظ من المعرفة بفنون النجوم والطب وما إلى ذلك على حد تعبير طه حسين الذي أنكر خطب العرب ووفودها عند كسرى، وسجع الكهان وكلام قس بن ساعدة، والحكم والوصايا من غير تردد، وكل ما يمكن الخروج به من هذا النثر ((الذي يضاف إلى الجاهليين، إنما هو شيء واحد، وهو أن من الممكن أن يكون هذا النثر قد حاول قليلاً أو كثيراً تقليد ما كان للعرب في جاهليتهم من نثر، فحفظ لنا صورة من هذا النثر الجاهلي، دون أن يحفظ لنا نصاً من نصوصه))[٥] وهذا عود على بدء، لأن عبارته تستلزم منا معرفة كيف ومتى، وأين حفظت صورة هذا النثر الجاهلي ومن أطلع عليها، وهو إقرار بوجود نثر وسجع أولي، وسبب ذلك أنه تأثر بآراء المستشرقين ونظرياتهم في نشأة الشعر العربي وصحته وحاول أن يقسر حقائق التاريخ كلها

---

[١] دراسات المستشرقين، ملاحظات عن صحة القصائد العربية القديمة الفرت ٤٢.

[٢] م.ن مرجليوث نشأة الشعر العربي ٩٩.

[٣] في الأدب الجاهلي ٤١٧.

[٤] م.ن ٤١٥.

[٥] م.ن ٤١٦.

لتوائم نظرية الشك التي تبناها ولذلك نجد التناقض الفاضح في عباراته فعلى سبيل المثال لا الحصر قال في نشأة الكتابة العربية ونشوء النثر المضري ((... واستعارتها الكتابة من أهل اليمن أو من النبط السريان – على اختلاف العلماء في ذلك – وتأثرها بالحياة الحضرية العامة، فنشأ فيها نوع من النثر لم يتحلل من قيود الشعر كلها وإنما تحلل منها بعض الشيء، لم يلتزم فيه الوزن، وإنما التزمت فيه القافية التزاماً ما، فنشأ السجع الذي كان يلتزم في بعض الخطابات الفنية وفي بعض الرسائل الفنية أيضاً))[1]. ومن العجيب في منهجه أنه قرر على وفق نظريته أحكاماً جازمة في هذا النثر الذي افترض فيه بعض الخطابات والرسائل الفنية التي لم يضرب لنا مثلاً عليها، كما أن نصه ينسف نظرية شكه كلها، لأن عرب الشمال أو المضريين إذا رجح استعارتهم الكتابة من أهل اليمن فلم تعد هناك من مشكلة بين اللغتين الشمالية والجنوبية، وإلا فكيف حدثت مثل هذه الاستعارة الكتابية وتطورت على مدى عقود أو قرون لم يحدد ذلك وتأقلمت مع السجع والقافية في النثر والشعر المضري، مما يعني قربهما من بعضهما حتى سهل استعارتها من اليمنيين أو النبط واستقامت للغة عرب الشمال وقد اقر طه بان استعارة هذه الكتابة في القرن السادس للمسيح ٥٠٠م وهو القرن الذي ينسب إليه معظم شعر شعراء اليمن وربيعة، فإذن لغة العرب الشمالية والجنوبية على وفق توحد هذه الكتابة توحدت منذ القرن السادس للمسيح ؛ حتى وان كانت هناك فروقاً طفيفة كالتي أوردها العلماء في بعض الأشعار، وبعض الألفاظ من آي الذكر الحكيم مثل (الأرائك) وغيرها، فمن غير المنطقي كتابة المضرية بحروف ولغة ليست من لغتها وما شأنها بها؟ بل كيف تكتب معاملاتها التجارية والاقتصادية بها أو بحرفها إن لم يكن أهلها على معرفة بها، ولكي يسوغ طه نظرية شكه قال معالجاً هذا التناقض ((.. ولو قد وصلت إلينا طائفة مكتوبة من هذا النثر لاستطعنا أن نقيم تاريخ النثر العربي على أساس متين، وأن نعرف كيف استطاع العرب أن يتحللوا من قيود الشعر، وإلى أي حد وصلوا من هذا التحلل، وكيف تطور نثرهم حتى انتهى إلى حيث نراه أيام بني أمية وبني العباس، ولكن شيئاً من هذه النصوص لم يصل إلينا))[2].

الأمثال في مقياس طه حسين سبب للانتحال :-

في تراثنا العربي كتب كثيرة في الأمثال الجاهلية وغيرها، وهي ثروة أدبية ضخمة جمعت في القرن الهجري الأول ولكنها من وجهة نظر طه حسين تشكل معضلة قال ((..ولكن تحقيق هذه الأمثال الجاهلية التي لم تستحدث في الإسلام ليس بالشيء اليسير. والأمثال بطبيعتها أدب شعبي مضطرب متطور، يصح أن يؤخذ مقياساً لدرس اللغة، ومقياساً لدرس الجملة القصيرة كيف تتكون، ومقياساً بنوع خاص لعبث الشعوب بالألفاظ والمعاني ولكن هذا كله شيء، والنثر الفني شيء آخر))[3]. فإذا كانت الأمثال أدباً شعبياً فتحت أي صنف يمكن أن يصنفه! قصة أم

---

[1] في الأدب الجاهلي ٤١٦-٤١٧.

[2] م.ن ٤١٧-٤١٨ لم يوضح د. طه إنه كان يعني النثر الفني أم النثر بعمومه مثل المعاملات التجارية والاقتصادية والسياسية وغيرها وهذا تعميم يضر بالأدب وتاريخه لاسيما وأنه اشترط في أول حدثيه عن النثر، معناه الفني. وقد عد القرآن المثل الأعلى للخطب والكاتب والشاعر مما يؤكد تبنيه نظرية مرجليوث.

[3] في الأدب الجاهلي ٤١٨.

حكاية أم شيئاً آخر؟ لأنه أنكره نثراً فنياً، ولم يشرح لنا كيف اتخذ اللغويون وعلماء النحو المثل مقياساً لدرس اللغة وهو أدب شعبي، وميز طه في النثر الجاهلي المنحول من سهولته ولينه[١]. عن غيره من الرصين الشديد.

الخطابة ونشؤها :-

أما الخطابة بوصفها أثراً أدبياً نثرياً فهي عند طه حسين فن إسلامي خالص فالخطابة ظاهرة اجتماعية مرتبطة عنده بالسياسة ((وكل الحياة الاجتماعية للعرب قبل الإسلام لم تكن – وإن غضب أنصار القديم – تدعو إلى خطابة قوية ممتازة. فالحواضر كانت حواضر تجارة ومال واقتصاد، ولم يكن للحياة السياسية فيها خطر يذكر))[٢]. وساق بعض العوامل التي تستلزم نشوء الخطابة مثل الاستقرار والاطمئنان والحياة المدنية المعقدة، لا البداوة مقارناً كما فعل المستشرقون خطابة العرب بخطابة اليونان التي ظهرت زمن الديموقراطية لا زمن الملوك والبداوة والطغيان، وهو منهج سياسي صريح في عرض ظواهر الأدب على مظاهر الحياة السياسية لا كما أدعى، بل نستطيع الجزم أن كتاب طه في الأدب الجاهلي قائم على عد الإسلام ثورة سياسية واجتماعية عرض عليها ظواهر الأدب العربي وعدها لازمة من لوزام التطور الاجتماعي الذي أوجده الإسلام بفعل القرآن[٣]. قال ((فنحن ننظر إلى الأدب الجاهلي كما ينظر المؤرخ إلى ما قبل التاريخ ويتخذ لدرسه الوسائل التي تتخذ لدرس ما قبل التاريخ. فأما لتاريخ الأدب حقاً، التاريخ الذي يمكن أن يدرس في ثقة واطمئنان وعلى أرض ثابتة لا تضطرب ولا تزول، فإنما يبتدي بالقرآن))[٤]. وأما بلاشير فكانت عباراته أكثر حذراً وانفتاحاً في النتائج التي توصل إليها المستشرقون والباحثون في تاريخ الأدب العربي، مع اقتباسه بعض آراء طه وإدراكه التام لاتخاذ طه من العصر الأموي أرضية لإرساء قواعد الشعر الجاهلي والنثر كذلك، ولكن طبيعة الاختصار في أسلوب طه حسين - المتأثر بأساليب المستشرقين في عرض المعلومات – لا تسمح للقارئ غير المطلع بالتماس هذه الحقيقة، في حين توسع بلاشير في وصف طباع البدوي وحياته ونظام قبيلته من استقراء الشعر العربي جاهلياً كان أم إسلامياً أموياً معتمداً تماماً كما فعل طه والمستشرقون من قبله آراء القدماء من دون الإشارة لجهودهم. وكان بلاشير في حديثه عن الفن النثري (الأدب القصصي) مدرسي التصنيف قال : ((وثمة كلمتان مستعملتان منذ القرن السادس الميلادي عند قاطني المجال العربي للتعبير عن مفهوم المثل الأول ذكره القرآن وهو المثل والجمع أمثال الذي يوازي في معناه القصة على لسان الحيوان والحكمة وتعني أيضاً المثل السائر. أما كلمة الحكمة والجمع حكم فأقل وضوحاً، ويخيل إلينا أنه كان لهذه الكلمة معنى القول المأثور والحكمة المثلية، ولعلها قضية محتوى ومنشأ، والظاهر أن الحكمة تحمل، أكثر من

---

[١] أنظر : م. ن ٤١٨ كيف ميز المنحول من هذا النثر الفني ولم يعطنا مثالاً واحداً على تمييز صحيح الأمثال من منحولها.

[٢] م.ن ٤١٩. وفي قوله منافاة للمنطق لأن وجود التجارة والاقتصاد يستلزم الاطمئنان ووجود سياسة لهما.

[٣] هذه نظرية مرجليوث التي تقدم ذكرها وتبناها من بعده طه حسين واخلص لها من أول كتابه لآخره وأدعى أنها نظرية داروين النشوء والارتقاء ٥٦-٥٧.

[٤] في الأدب الجاهلي ٤٢٠.

المثل، طابع الإبداع الشخصي والتفكير المتفق عليه، وكان مصير بعضها، على ما يبدو، مصير أشعار لافوتين التي أصبحت فيما بعد أمثالاً، إذ كانت هذه الحكم في أول الأمر أقولاً مأثورة ثم تلقت شكلاً نهائيا وذلك بانسكابها في القالب الشعري))[١]. وهذه في الواقع منهجية المستشرقين قبله، ولكنه بدلاً من نقل عبارتهم كما جاءت للأمانة العلمية عمد إلى متابعة اللفظ في القرآن فخلط بذلك آراء علماء العرب في هذا الشأن بآراء أساتذته واعتمادهم التلاعب بالألفاظ، ولكنه لم ينكر هذه الثروة اللغوية ولم يتجرأ على وصفها بالأدب الشعبي، فميز منهجه عن منهج طه في دراسة ظواهر تاريخ الأدب العربي. وفيما يتعلق بتدوين هذه الأمثال وجد خطأ منهجياً في تدوينها، إذ اتبع علماء العرب معطيات البحث في التاريخ والتراجم عند تدوينها، أي اتخذوا مقدار الجمع من غير الإشارة لمكان انتشار المثل أو زمن انطلاقه، وهو أمر مهم في العمل على تحديد تاريخ الأدب، وتطوره فضلاً عن كم المادة المجموعة فنقل عن علماء العربية ابتداء الجمع من أواخر القرن الأول الهجري / السابع الميلادي وحدد مراحل التدوين للأمثال بالمفضل الضبي واكتمل بظهور مجموعة الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨هـ/١١٤٣م وزاد ((... وكان الجمع تم تقريبا، ولم يكد يبدأ العمل على وثائق من الدرجة الثانية حتى فطنوا إلى تمييز الأمثال القديمة، من الأمثال الجديدة فجاء العمل متأخراً بعد أن بولغ في تقدير المنهج))[٢]. وقد اتخذ مادة الأمثال وطبيعة روايتها وسيلة لدراسة عقلية المجتمع العربي وطرائق تصور وتحليل الذهن في هذا المجتمع[٣] وهو ما فعله قبلاً في استنباط صورة البدوي ومجتمعه وقبيلته وقوانينها من أشعاره، ويبدو أن خلطه بين المثل وكلام القرآن، جاء من ورود أمثلة في كتاب الله تعالى "كالتي نقضت غزلها من بعد أنكاث"[٤]. وعلماء العربية عرفت المثل ((قال أبو عبيد : الأمثال حكمة العرب في الجاهلية والإسلام، وبها كانت تعارض كلامها فتبلغ بها ما حاولت من حاجاتها في المنطق بكناية غير تصريح، فيجتمع لها بذلك ثلاث خلال: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه وقد ضربها النبي (ρ) وتمثل بها هو ومن بعده من السلف))[٥]. وأما رأي طه حسين في أن الأمثال أدب شعبي فربما جاء من فهمه لنصوص القدماء أن ((الأمثال لا تغير، بل تجري كما جاءت، قال ابن دريد في الجمهرة وابن خالويه : كانت نساء الأعراب يؤخذن الرجال بخرزه يقلن : يا قبلة إقبليه ويا كرار كريه أعيذه بالينجلب. هكذا جاء الكلام وإن كان

---

[١] تاريخ الأدب العربي م٣/٤٣٨-٤٣٩ ذكر المستشرق الفرت استخدام الأمثال إلى جانب الأشعار في الدراسات اللغوية أنظر دراسات المستشرقين ٤٧.

[٢] م.ن م٣/٤٤٠، وأنظر مكتبة الأدب الجاهلي د. عفيف عبد الرحمن وتسلسل كتب الأمثال ومؤلفيها زمنياً ٢٤-٢٧.

[٣] قصد بذلك حدسية وحسية الإنسان العربي. وهذا مخالف تماماً لما اشترطه طه حسين في النثر من استلزام وجود تطور اجتماعي وعقلي لإنتاج الفن النثري .

[٤] سورة النحل آية ٩٢. وأنظر الأمثال من الكتاب والسنة للترمذي ت مصطفى عبد القادر ط١/١٤٠٩هـ-١٩٨٩ بيروت لبنان ٢٤ في معنى المثل وتاريخه في القرآن والسنة.

[٥] المزهر م١/٣٨٤.

ملحوناً ؛ لأن العرب تجري الأمثال على ما جاءت ولا تستعمل فيها الأعراب))[1]. وكان لبلاشير التفاتته في هذا الرأي فسعى إلى تحديد زمن المثل ومكان انتشاره، لمعرفة متى تسلل إلى الأمثال مثل هذا اللحن إذا كان الأعراب فصحاء وعنهم أخذت اللغة، مما يعني أن لو حدث وثبت لحن المثل قبل الإسلام لثبت أيضاً وقوع بعض الشعراء في الخطأ المخالف للقياس، أو القاعدة النحوية، ولكنه اختار الاستنتاج الأقرب للنظر فقال: ((...، وإذا ما فسحنا المجال لمجلوبات التوسع العربي الإسلامي في المناطق المتاخمة لشبه جزيرة العرب فان هذا الأدب المثلي يمثل أحد مصراعي لوحتين كان فيهما القرآن المصراع الثاني. ان حفظ السر، والوفاء باليمين، ومدح السكوت، والضيافة، والجود والحلم، وذم الثرثرة، والتبجح، والشح، والغضب، والدعوة إلى التزام الحذر واليقظة والمهارة والخدعة في الحرب، والثبات في الشدائد، كل هذا موجود في الحكمة الوثنية ولا ريب في أن القرآن ذهب إلى أعلى من ذلك، وأنه جاء بإمكانيات أخرى، من المحقق أن الحقيقية البدهية تهيمن على كل ذلك، بيد أن الصيغة تختلف مع ذلك))[2]. ولم يلتفت للاستشهاد اللغوي بالأمثال، ولكنه بين هدف بحثه المنشغل بعد القرآن أثراً فنياً، وهو موقف طه حسين والمستشرقين الأوائل من قبله[3]. ولكن ملامح الشك في الأدب الجاهلي شعراً ونثراً والمتخفية تحت أثواب متعددة في كتاب بلاشير، نجدها عند طه مضخمة وفي شكل استفزازي، وقدرة على فتح أبواب التساؤل والعمل البحثي من أوسع الأبواب في ميدان الأدب الجاهلي شعراً ونثراً. ومن المفارقات أن نجد بلاشير يذكر لقمان الحكيم إلى جانب أكثم بن صيفي من العظماء الذين أقام العالم العربي مدفناً لهم، ولم يتساءل كيف وصلت حكم لقمان وبأية لغة، واكتفى بما ذكره القرآن بشأنه ؛ مما يعني اعترافه بمعرفة العرب أخبار الأمم الماضية قبل نزول القرآن، مكتفياً بالإشارة والتلميح، ومتحاشياً التصريح الذي اتخذه طه حسين منهجاً لشكه، وربط بلاشير الأمثال والأقوال المأثورة والأسطورة الخرافية وتجاوز الإشارة للأخبار التي وردت في الإسرائيليات والإنجيل[4]. ولكننا نجد عنده تفسيراً لمعنى الأدب الشعبي[5]. الذي أطلقه المستشرقون على هذه الأمثال في حين غاب عن طه ذلك التفسير ونلحظ في منهج بلاشير رصداً للتطور الفني في شكل الأمثال التي كانت موجزة الألفاظ فصارت بصيغ مألوفة في القرآن وهذا أمر لافت يستحق الدراسة[6]. وعلى الرغم من نفس الشك في عباراته، إلا أنها صريحة واضحة في إثبات جاهلية

---

[1] م.ن م١/٣٨٥.

[2] تاريخ الأدب العربي م٣/٤٤٢.

[3] يلاحظ تأثر بلاشير بآراء طه أشارته لعدم قدرته تحديد مجلوبات العرب المستعربة واليمنيين في الأمثال م٣/٤٤٢-٤٤٣ وأنظر ما قاله في عقلية العالم العربي، وتبنيه أقوال طه في الشك بالأمثال المنسوبة للعصر الجاهلي م٣/٤٤٥.

[4] أنظر على سبيل المثال لا الحصر ما أورده كعب الاحبار من الإسرائيليات كعب الأحبار وأثره في التفسير / للدكتور خليل إسماعيل اليأس دار الكتب العلمية بيروت ط١ ٢٠٠٧م٤٢٨/ ٣٢٦-٣٤١.

[5] أنظر تاريخ الأدب العربي م٣/٤٤٦-٤٤٧ وما أورده في بعض الأمثال المحتفظة بطعم شعبي (ألفاظ بذيئة) بذيئة) وعموم هذه الظاهرة في المثل العربي.

[6] تاريخ الادب العربي م٣/٤٤٧ وما ضربه من محاولات محدودة ومعاودة ظهورها بعد قرنين في الأدب العراقي.

كثير من الأمثال لا نزرتها كما قال مشتركاً في ذلك مع طه في الرأي، وما ذكر ظاهرة وجدت في الشعر المنسوب لبعض الجاهليين ولم تظهر في الأمثال[١].

حديث السجع عند بلاشير :-

ناقض بلاشير نفسه في حديثه عن السجع لأنه أقر أن للعرب نثراً مسجوعاً مرتبط بالسحر في نشأته (الكهانة) ومنه انطلق الشعر العروضي في رأي بعضهم على حد تعبيره. وكون السجع منذ القرن السادس الميلادي الشكل غير المألوف والجمالي لا شعورياً لفكر المجال العربي. ثم عاد فقال ((... ولكن الآثار النثرية المسجوعة لا تثبت لسوء الحظ، في هذا المضمار أمام دراسة جدية، وفي الواقع فهي منحولة، لا تكاد تستحضر مؤلفات صحيحة اختفت إلى غير رجعة. واحتفظ لنا بعينات من هذه المنحولات، مؤلفون يشك في أمانتهم أحيانا، مثل ابن إسحاق، أو مؤلفون متأخرون أمثال الجاحظ والمسعودي وغيرهما من الذين استندوا إلى أحاديث من الدرجة الثالثة أو الرابعة. وفي الحقيقة فان القرآن يقدم لنا في بعض أجزائه، وبأسلوبه تستطيع جداً تمثيل أقدم نتاج مسجوع))[٢]. فكيف يكون للعرب نثر مسجوع موغل في القدم ثم هو منحول، ولا يمكن الوثوق إلا بالنص القرآني شاهدٌ أول على النثر الفني عند العرب، إنه الإخلاص لمنهج الاستشراق في نقل المتأخر عن المتقدم آراءه قال نيلدكه ((..وهنجستنبرج Hengstenberg - وهو رجل لا يستطيع أحد أن يتهمه بالمبالغة في النقد – قد أثبت، في مقدمته لمعلقة امرئ القيس عدم صحة هذا الإدعاء الخاص بالمعلقات وعرض الأسباب التي استند إليها في رأيه وهي أسباب حاسمة... لكنه الأيسر قبول خبر جميل كهذا من الأسلاف، خصوصاً وأن من بينهم شخصيات مثل هربلو، وريسكه، ووليم جونز، ودي ساسي، وبقي هذا الخبر يتوالى إيراده في كتب تاريخ الأدب العامة وكتب أخرى مدة طويلة إلى حد عدم الشك في أن الحقيقة ستتجلى نهائياً ذات يوم))[٣]. وهذا كفيل بإتباع طه حسين السبيل الأيسر في البحث بنقل آراء المستشرقين وتدويرها على افتراءاتها في الأدب الجاهلي وكذلك فعل بلاشير وزاد على ذلك بنقل بعض ما ظن طه اكتشافاً جديداً لجهل وسذاجة علماء العربية الاجلاء وإعمالهم التي لا تنقصها المنهجية والتمحيص، أكثر من عمله فعلى سبيل المثال لم يستطع طه حسين ولا بلاشير ان يصنف لنا من أي أنواع النثر المسجوع القرآن لا أسلوبه، وإذا كان طه اقتبس آراء علماء العرب القدماء في محاولة لإثارة الشك فيها، أو الجدل العقلي والموضوعي من غير الإشارة إلى جهودهم وأفكارهم صراحة، فإننا نجد بلاشير أكثر توسطاً في عرض أفكارهم ؛ فبعد أن قرر تعايش الشعر العروضي والنثر المسجوع منذ القرن ٥٠٠م، عاد فبرر شكه بالقول ((ويرى المؤرخ الطبري أن المجال العربي عرف الرأيين في منتصف القرن الثامن للميلاد أو الثاني للهجرة، ومن الممكن جداً أن تكون التنبؤات المصنوعة الموضوعة على السنة الكهان

---

[١] م.ن م٢/٧٠- ٧١ ونسب الشك في الشعر الجاهلي لمنهج الجمع لا النزاع القبلي، أو الدين والشعوبية.

[٢] تاريخ الأدب العربي م٢/٦ ومع ذلك وجد أسلوب القرآن مختلفاً عن النثر مما يجعله يحجم عن الانتفاع بشواهده إلى أبعد نقطة محدودة وسبب ذلك أنه يجمع القصة والمثل والحكمة ووصف تقريري للجنة والنار وأخبار الأمم السابقة وخطاب مباشر أي جميع أنواع النثر التي ساقها في بحثه.

[٣] دراسات المستشرقين الفصل بعنوان من تاريخ ونقد الشعر العربي القديم نيلدكه ٣٤/٣٥.

الجاهليين التي ظهرت تحمل تاريخ القرن الثاني للهجرة والثامن للميلاد، إعادة مباشرة لهذا النتاج، ولا ريب في أن هذا النتاج امتداد لاستعمال سابق بحيث يحملنا على تجويز الاستناد إلى تلك "المصنوعات" لكي تتولد عندنا فكرة عن السجع في القرن السادس للميلاد وأوائل الذي يليه))[١]. ولم يذكر لنا نصاً يرقى للقرن السادس للميلاد أو المصدر الذي وجده فيه، أو حتى أن يلجأ إلى نقد النصوص ويبين أسباب شكه فيها، كما فعل طه متابعة لأسلوب نيلدكه، ويبدو أن متابعته لآراء المستشرقين المتقدمين ولآراء طه، ولد هذا الالتباس والتناقض في كتابه ومنهجه لأنه على الرغم من طرحها تحت ألفاظ مترجرجة مثل قد وربما ويمكن فإنه اتخذ آراء سابقيه مسلمات في عمله، فضلاً عن اتساع كتابه مما استلزمه وضع تقسيم مدرسي للنثر وأنواعه[٢]. وهي تقسيمات فيها من الخلط شيء غير قليل. وحاول في أكثر من موضع أن يميز منهجه في توجيه الشك عن منهج طه حسين، على سبيل المثال لم ينكر على العرب وجود خطابة وخطباء في جاهليتهم، ولا افترض ان الخطابة وليدة نزاع سياسي ومجتمع مستقر، وكان تعبيره أكثر حذراً وتوصيفياً ((كان يطلق على الناطق بلسان القوم، في أواخر القرن السادس اسم الخطيب، وسميت أقواله الخطبة والجمع خطب وكان يحتل مكاناً رفيعاً في قبيلته، وكانت هذه تفتخر بوجود خطباء مشهورين فيها، فإذا مات خطيب رثاه قومه بمراث، قال ابن عبد ربه :- ولابد للوافد عن قومه أن يكون عميدهم وزعيهم الذي عن قوته ينزعون، وعن رأيه يصدرون، فهو واحد يعدل قبيلة، ولسان يعرب عن السنة...))[٣]. ومن الغريب في منهج بلاشير أنه اقتبس مصادر من علماء العربية وقد عد بعضهم مصدراً غير موثوق (الجاحظ) وقد نقل عنه أخبار الخطباء ومكانتهم، بل قال ((وحفظ لنا الجاحظ قائمة بأسماء هؤلاء الخطباء الذين امتدوا من أواخر القرن السادس للميلاد وحتى وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام سنة ١١هـ/٦٣٢م، وإذا ظلت قيمة شهادة الجاحظ ضعيفة فان التعداد لا يعدم كونه علامة تشعرنا بالمكان الذي احتله هؤلاء الخطباء في أذهان الأجيال))[٤]. فمن الضعف العلمي أن يشك الباحث في شهادة مصدر وصاحبه، ويعده غير ثقة، ومع ذلك يتخذ أخباره مرجعاً لتعريف القارئ والمكتبة الفرنسية بتاريخ الخطابة والخطباء في العصر الجاهلي والإسلامي.

تعاطي بلاشير مع القرآن الكريم :-

فيما يتعلق بالقرآن نجده يتخذ الحذر كل الحذر كما قال في الانتفاع بشواهد القرآن لأنه وجد أسلوبه مختلفاً عن النثر، ثم طبق وجهة نظره على كتاب المسلمين المقدس لاسيما اعجازه، إذ هو ليس ((سوى أثر أدبي، ولكن القرآن ذاته يحملنا على النظر إليه كذلك فنحن واجدون فيه، وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم[٥]...))[٦] وكانت

---

[١] تاريخ الأدب العربي م٢/٩.

[٢] تاريخ الأدب العربي م٣/٣٨٦-٤٨٧ وفيما أورده تداخلاً يثير كثيراً من الإشكالات العلمية.

[٣] م.ن م٣/٣٨٧ وأنظر المصدر الذي اعتمده البيان والتبيين م١/١٧٦-١٨٠.

[٤] م.ن م٣/٣٨٨-٣٨٩.

[٥] سورة البقرة ٢-٢٣، ٢٤.

[٦] تاريخ الأدب العربي م٢/١٤.

أسماء القرآن محط اهتمامه، ولم يشرح لنا سبب ذلك قال ((وتطلق هذه الرسالة الدينية على نفسها اسم الوحي أو الكتاب تارة والذكر أو القرآن تارة أخرى))[١]. واحتفظ بصيغة الاحترام والتبجيل في حديثه عن القرآن بوصفه كتاب المسلمين المقدس ورسالة سماوية مصدرها الوحي الإلهي. ولكننا نجد عنده إشارات لافتة للنظر في استنباط دراسات تاريخية من القرآن قال : ((..، ومن جهة ثانية فان التفاسير الحريصة، في أي سورة من سور القرآن على اكتشاف إشارات تلميحية من شأنها تأكيد عناصر سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام كما تشكلت بعد حوالي قرن، حاولت أن تعيد تصنيف النصوص التي وردت فيها تلك التلميحات تبعاً لتسلسل زمني خاضع للمناقشة ويبدو أحيانا اعتباطياً))[٢]. مما يعني أنه عد تفاسير القرآن الكريم أعمالاً أدبية نقدية أو شروحاً أدبية ولغوية وتاريخية، تدخل ضمن تاريخ الأدب العربي، وهو أمر إن شمل تفسيراً أو ثلاثة فلا يمكن بحال من الأحوال عده عملاً أدبياً أو أثراً في تاريخ الأدب العربي، وإنما في تاريخ اللغة العربية وتاريخ التفسير والفقه، وهذا الرأي على ما يبدو مجاراة لدعوة طه حسين والمستشرقين قبله لدراسة اللغة وتاريخ الحياة الجاهلية للعرب من القرآن – بوصفه الوثيقة التاريخية الصادقة والموثوقة لذلك العصر، التي يمكن بناء أحكام علمية على حقائقها – قال ((وتؤرخ الهجرة التي حدثت سنة ٦٢٢م تحولاً تاماً في سيرة محمد عليه الصلاة والسلام ودعوته، فلم تعد حياته محاطة بالأساطير، فثمة تواريخ ووقائع تعرض أمام المؤرخ الذي يجد فيها سوى تحدد مراحل سيرته، ولم يعد محمد (ρ) نبياً يبشر في الصحراء، بل تحول إلى زعيم ذي سلطة إلهية، يتلقى أوامره من السماء ويحكم باسم الله عز وجل))[٣]. وعلى الرغم من بعد أقواله عن عمل المؤرخ الأدبي والنقد الأدبي، إلا أنه يؤشر ارتباط البحث في تاريخ الأدب العربي جاهلياً كان أم إسلامياً بالحديث عن القرآن وشخصية الرسول (ρ)، والصلة الوثيقة – عند المستشرقين وطه كذلك – بين الأدب العربي شعره ونثره بالقرآن ثم بشخص الرسول (ρ) فهما يمثلان عندهم بداية التوثيق المحقق والتسجيل الكتابي لأي أثر أدبي أو تاريخي عربي، على الرغم من اعتراف كثير من المستشرقين بوجود وثائق وألواح وقصائد مكتوبة قبل نزول الوحي بالقرآن، مما يؤكد اشارتنا السابقة من ارتباط السياسة بالأدب إلى أبعد حد لاسيما في بحوث المستشرقين وطه حسين، ومقارنة بسيطة بين ما كتبه طه في دعوة الرسول (ρ) وتسلسل الأحداث والصراع بين المشركين من قريش وغيرهم والرسول (ρ) وأنصاره[٤]، وبين ما قاله بلاشير في الظاهرة القرآنية وأثرها في نفوس وفكر الشعوب التي عرفتها على حد تعبيره[٥]. وقل مثل ذلك في القصص العربي بوصفه مصدراً من مصادر النثر، وقد وقع د. طه في إشكالية يصعب حلها، إذ جعل

---

[١] م.ن م٢/١٣-١٤ هذه المسميات نزلت في سياقات لم تكن تخفى على المؤلف كما يتضح من صيغة بحثه، وكل منها تعني معنى خاص في موضعه وسياقه، وليس فقط لأغراض بلاغية بل هو إعجاز فعلي كما أشار.

[٢] تاريخ الأدب العربي م٢/١٦.

[٣] م.ن م٢/١٧ لقد بحث تحت عنوان تكوين النص القرآني تطور تدوين القرآن م٢/١٩-٢٣ وحلل بشكل موجز سور العهد الملكي والمدني م٢/٢٣-٥٠.

[٤] في الأدب الجاهلي ١٦٧-١٦٨.

[٥] تاريخ الأدب العربي م٢/٥٠-٥٧.

القصص سبباً من أسباب نحل الشعر الجاهلي، وقصرها على الطور الشفاهي قبل الإسلام والقصص ((في نفسه ليس من السياسة ولا من الدين، وإنما هو فن من فنون الأدب العربي، توسط بين آداب الخاصة والآداب الشعبية، وكان مرآة للون من ألوان الحياة النفسية عند المسلمين، وأزهر في عصر غير قصير من عصور الأدب العربي الراقية، أزهر أيام بني أمية وصدراً من أيام بني العباس، حتى إذا كثر التدوين وانتشرت الكتب واستطاع الناس أن يلهوا بالقراءة دون أن يتكلفوا الانتقال إلى مجالس القصاص، ضعف أمر هذا الفن، وأخذ يفقد صفته الأدبية الراقية شيئاً فشيئاً، حتى ابتذل وانصرف عنه الناس))[1]. وقد رأينا كيف اثبت ابن الجوزي ارتباط القصص والقصاص بالدين أول الأمر، ثم هو حدد زمن بني أمية بداية لهذا الفن ولم يحدد عصر انقراضه مما يعني اطلاعه على آراء القدماء وتشويه جهدهم، أو اختيار مخالفتهم على سبيل تمييز منهجه، حتى الادعاء باكتشافات في تاريخ الأدب العربي، لم يسبقه إليه أحد، ثم هو بعد يثير تساؤلا : كيف قبل نقل قصص شفاهيا إلى عصر بني أمية، وصدر العصر العباسي، وهو فن يتوسط بين آداب الخاصة والشعبية مطعم بالأشعار المنحولة حتى دونت، ثم ابتذلت وانصرف الناس عنها؟ في حين رفض هذا الأمر رفضاً قاطعاً أن يكون الشعر الجاهلي نقل شفاهيا إلى عصر بني أمية وبني العباس وقبلهما في الإسلام، مع انشغال الناس بالقرآن وحفظه في عصر صدر الإسلام، فضلاً عن مصادر هذا القصص التي عددها وأولها القرآن[2]. فهل كانت هذه الأخبار والقصص مدونة فعرفها العرب كتابة أم شفاها؟ وبأية لغة كتبت إن كانت من أخبار الرهبان والأحبار والمجوس والأنباط وغيرهم؟ وكم استلزم العرب وقتا لترجمتها، وهل كان ذلك في عهد بني أمية العهد العربي أم العصر العباسي كما تشير مصادر التاريخ؟

---

[1] في الأدب الجاهلي ١٨٧ وذكر الجاحظ أن أول ما عرف القصص وحديثها في جامع البصرة.

[2] ربط طه القرآن بما دار حوله من تفاسير مفترضا أن مصدرها ما كانت تتحدث به العرب من أخبار وأساطير في الأمصار، فضلاً عن أخبار وقصص اليهود.

النتائج

أ. وجدنا في منهج طه الداعي إلى الشك كثيراً من عدم العناية بتحديد المصطلح (قصص أم أخبار) أدب (شعبي أم أدب خاص) فضلاً عن تداخل أسباب النحل عنده القصص وحكايات الأمثال، مع استهانة واضحة وإنكار لجهد وعقلية علماء العربية القدماء[١]. وتابعه في هذا الأمر بلاشير بمثل عبارات ((قصائد يستحيل الانتفاع بها، وهي المطولات، وبخاصة المعلقات. ويبدو أن هذه النصوص بعناصرها الاستحضارية للتقاليد الشعرية تتلاقى والبيئة التميمية ويتلاقى أيضاً في المقلدات مؤلف القصائد المنسوبة إلى عبيد بن الأبرص وبعض علماء البصرة أيضاً وبخاصة أبو عمرو بن العلاء الذي رفع كل ما يتعلق بامرئ القيس إلى مصاف التقديس ويوحي كل شيء في البصرة بان الأمور انتهت باتخاذ امرئ القيس صورة معلم الموضوعات الوصفية ومبدعها، ان حالة هذه الشخصية لمن ضمن الحالات التي تطلعنا، أحسن من أي شيء آخر، على مقدار تشويه علماء العراق، في العصر الوسيط، لنظرتنا إلى الشعر القديم))[٢].

ب. الربط الوثيق بين لغة العرب الشمالية التي دون بها القرآن وإشكالية شكل لغة عرب الجنوب أهل اليمن وهي نظرية أبي عمرو اقتبسها طه حسين ومن قبله بعض المستشرقين وابتسرها وأسس عليها نظرية شكه التي شاركه فيها إلى حد بعيد بلاشير، حتى أنه شكك في مصداقية أقوال وأخبار الجاحظ ولكنه نقل رأيه في شعر بشر بن أبي خازم، لموافقته هوى التشكيك الاستشراقي قال ((.. ويحق لنا أحياناً الظن بوجود نظم جماعي، ويؤكد الجاحظ نفسه أن كثيراً من الشعر المصنوع انتشر في زمنه باسم بشر، ويظهر أحياناً أثر عمل المقلدين غير الموفق. وتأخذ أغلب هذه المقطوعات شكل قصائد، وهي تمثل في توازن أجزائها قصائد جديرة بكتب المختارات الشعرية، وأن أكثر الأنواع تمثيلاً هو المديح، والفخر الشخصي، أو القبلي، والرثاء، والوصف الحيواني، ويغلب على اللغة التقبض بصورة عامة، وقد تأخذ شكلاً أكثر بساطة))[٣].

وهذا يعني أنه جعل العصر العباسي هو عصر نحل وتزييف الشعر الجاهلي مخالفاً بذلك طه حسين الذي عد عصر بني أمية عصر نحل الشعر الجاهلي بالأسباب التي قدمها من اثر القبلية ونزاعاتها والصراع بين الرسول والمشركين ثم الصراع بين الأحزاب الإسلامية إلى غيرها من الأسباب التي قدمنا لها في هذا البحث.

---

[١] في الأدب الجاهلي ١٩٦-٢٠١ وما قاله في نقول ابن سلام والطبري للإشعار المفسرة للأمثال مع ان كثيراً من أبيات الشعر الأموي (الفرزدق) والعباسي (المتنبي) ذهبت أمثالاً ولا أدري كيف غاب عن نظر د. طه الثاقب مثل هذا الأمر، مع أنه قاس كثيراً من المظاهر على ما في عصره وعلى ما لحظه في آداب الأمم الأخرى مجاراة لمنهج المستشرقين الفرت ومارجيلوث.

[٢] تاريخ الأدب العربي م٢/٨٧.

[٣] م ، ن م٢/٨٨ وأشار في الصفحة نفسها لوجود شرح لشعر بشر عمل أبي عبيدة اطلع عليه البغدادي في القرن ١١ هـ السابع للميلاد.

ج. ناقض كلا الرجلين نفسه في عد طه العصر الأموي عصر نحل الشعر الجاهلي وبلاشير في عد العصر العباسي هو بداية ذلك النحل ؛ وذلك بنقلهما معاصرة بعض المخضرمين والجاهليين لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا مما لا شك فيه رد كبير على شك طه في وجود شعر جاهلي، أو نظام لا وزانه ومنهاجاً للغته.

د. اخلص كل من الرجلين لمنهجه الذي رسماه في مقدمة كتابيهما، ولكن أداة التطبيق لم تتوافق تماماً مع نظرياتهم فاختل تطبيق نظرية الشك على كل الشعر والنثر الجاهلي العربي عند طه حسين وبعض الشعر والنثر الفني عند بلاشير، فاختار متابعة نيلدكه ومارجليوث بعد القرآن أول وأقدم أثر أدبي وتاريخي مكتوب عند العرب والمسلمين، وهذا أيضا مما أنكره كثير من العلماء العقلاء وأصحاب الهمة وسعة الاطلاع والسعي الدؤوب في نقل وعرض المعلومات وتمحيصها لا الاكتفاء بالنقل عن المتقدمين. قال د. عبد الرحمن بدوي في مقدمته ((إن الدكتور طه حسين في كتابه ذاك لم يكن أول باحث في العصر الحديث بحث في صحة الشعر الجاهلي وأسباب الانتحال فيه . بل كان على العكس من ذلك تماماً : آخرهم))[1].

هـ. أولى بلاشير عناية غير قليلة بالتحديد الزمني للإحداث والنصوص، وأهمل د. طه ذلك حتى في نظرياته التي نثرها في معظم صفحات كتابه واغفل ذكر أسانيد نقله. ولم يخف كلا الرجلين شكهما في الحديث النبوي الشريف وفي طرائق جمعه وهي نظرية فصل فيها الطبري والسيوطي وغيرهم.

و. لم يستطيعا تقديم نظرية أو منهج للباحث علميين يعتمدها في كشف الزائف والمنحول من الصحيح الموثوق في شعر ونثر العرب الجاهلي.

قائمة المراجع والمصادر

١. القرآن الكريم.

٢. الأدب الجاهلي بين لهجات القبائل واللغة الموحدة أطروحة د. هاشم الطعان ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م بغداد دار الحرية.

٣. الإعراب الرواة د. عبد الحميد الشلقاني ط٢ ١٣٩١هـ-١٩٨٢م طرابلس الجماهيرية الليبية.

٤. الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ت إحسان عباس، إبراهيم السعافين، بكر عباس ط٣ ٢٠٠٨م دار صادر بيروت م٢.

٥. الأمثال من الكتاب والسنة أبو عبد الله محمد بن علي الحكيم الترمذي ت مصطفى عبد القادر عطا ط١ ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م بيروت لبنان مؤسسة الكتاب الثقافية.

٦. تاريخ الأدب العربي ر.بلاشيرت د. إبراهيم الكيالي ٣ مجلدات.

٧. تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري. طه احمد إبراهيم.

[1] دراسات المستشرقين ١١. وأشار إلى تضخيم المستشرقين وطه لبعض آراء علمائنا القدماء حتى ظهرت نظريات من ابتكارهم، وهي جهد عربي قديم في دراسة الشعر الجاهلي.

٨. خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب عبد القادر بن عمر البغدادي ط١ / المطبعة الميرية ببولاق المجلد الأول.
٩. دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي تحقيق د. عبد الرحمن بدوي ط١ /١٩٧٩م دار العلم للملايين بيروت.
١٠. طبقات فحول الشعراء محمد بن سلام الجمحي قراءة وشرح محمود محمد شاكر بمجلدين مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر.
١١. في الأدب الجاهلي طه حسين ١٩٢٧م دار المعارف بمصر.
١٢. القصاص والمذكرين جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي القرشي تحقيق أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول.
١٣. مجلة الخليج المجلد ١٦ العدد ١ / ١٩٨٤ بحث بعنوان دراسات في اللهجات العربية في اللهجة الصنعانية د. خليل إبراهيم العطية.
١٤. المزهر في علوم اللغة وأنواعها السيوطي شرح وتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، محمد جاد المولى، علي محمد البجاوي ٢٠٠٩ صيدا – بيروت.
١٥. المعرب من الكلام الأعجمي الجواليقي وضع حواشيه وعلق عليه خليل عمران المنصور.
١٦. مع طه حسين سامي الكيالي ١٩٥٢ دار المعارف للطباعة والنشر سلسلة إقرأ.
١٧. من الشاطيء الآخر طه حسين في جديده الذي لم ينشر سابقاً جمعها وترجمتها عن الفرنسية عبد الرشيد الصادق محمودي ط١/١٩٩٠ بيروت.